

مصطفى محمود

الإسلام..
ما هو..؟

الدين ... ما هو؟؟

الدين ليس حرفة ولا يصلح لأن يكون حرفة .
ولا توجد في الإسلام وظيفة اسمها رجل دين .
ومجموعة الشعائر والمناسك التي يؤديها المسلم يمكن أن تؤدي
في روتينية مكررة فاترة خالية من الشعور ، فلا تكون من الدين
في شيء .

وليس عندنا زى اسمه زى إسلامي .. والجلباب والسروال
والشمروخ واللحية أعراف وعادات يشترك فيها المسلم واليهودي
والمجوسي والدرزي .. ومطربو الديسكو والهيبى لحاهم أطول ..
وأن يكون اسمك محمدًا أو عليًا أو عثمان ، لا يكفي لتكون
مسلمًا .

وديانتك على البطاقة هي الأخرى مجرد كلمة .
والسبحة والتمتمة والمححمة ، وسمت الدراويش وتهليلة

المشايع أحياناً يباشرها الممثلون بإجادة أكثر من أصحابها .
والرايات واللافتات والمجامر والمباخر والجماعات الدينية
أحياناً يختفى وراءها التآمر والمكر السياسى والفتن والثورات
التي لا تمت إلى الدين بسبب .

ما الدين إذن ... ؟

الدين حالة قلبية .. شعور .. إحساس باطنى بالغيب ..
وإدراك مبهم ، لكن مع إيهامه شديد الوضوح بأن هناك قوة خفية
حكيمه مهيمنة عليها تدبر كل شيء .

إحساس تام قاهر بأن هناك "دافعاً غيبياً" .. وإن لم تلمسه كتم
ملك .. وأنه لا مهرب لظالم ولا إفلات لمجرم .. وأنت حر
مستول لم تولد عبثاً ولا تحيا سدى وأن موتك ليس نهايتك ..
وإنما سيعبر بك إلى حيث لا تعلم .. إلى غيب من حيث جنت
من غيب .. والوجود مستمر .

وهذا الإحساس يورث الرهبة والتقوى والورع ، ويدفع إلى
مراجعة النفس ويحفز صاحبه لأن يبدع من حياته شيئاً ذا قيمة
ويصوغ من نفسه وجوداً أرقى وأرقى كل لحظة متحسباً لليوم
الذى يلاقى فيه ذلك الملك العظيم .. مالك الملك .

هذه الأزمة الوجودية المتجددة والمعاناة الخلاقة المبدعة
والشعور المتصل بالحضور أبداً منذ قبل الميلاد إلى ما بعد
الموت .. والإحساس بالمسئولية والشعور بالحكمة والجمال

والنظام والجدية فى كل شيء .. هو حقيقة الدين .
إنما تأتى العبادات والطاعات بعد ذلك شواهد على هذه الحالة
القلبية .. لكن الحالة القلبية هى الأصل .. وهى عين الدين وكم
وجوهه .

ويتزل القرآن للتعريف بهذا الملك العظيم .. ملك الملوك ..
وبأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله وآياته ووحدانيته .
ويأتى محمد عليه الصلاة والسلام ليعطى المثال والقدوة ،
وذلك لتوثيق الأمر وقام الكلمة .

وإن بظل الإحساس بالغيب هو روح العبادة وجوهر
الأحكام والشرائع ، وبدونه لا تغنى الصلاة ولا تغنى الزكاة
شيئاً .

ولقد أعطى محمد عليه الصلاة والسلام القدوة والمثال للمسلم
الكامل ، كما أعطى المثال للحكم الإسلامى والمجتمع
الإسلامى .. لكن محمداً عليه الصلاة والسلام وصحبه كانوا
مسلمين فى مجتمع قريش الكافر .. فبيئة الكفر . ومنابع الكفر
لم يمنع أياً منهم من أن يكون مسلماً تام الإسلام .

وعلى المؤمن أن يدعو إلى الإيمان ، ولكن لا يضره ألا يستمع
أحد ، ولا يضره أن يكفر من حوله ، فهو يستطيع أن يكون
مؤمناً فى أى نظام وفى أى بيئة .. لأن الإيمان حالة قلبية ، والدين
شعور وليس مظهرة ، والمبصر يستطيع أن يباشر الإبصار ولو

كان كل الموجودين عمياناً ، فالإبصار ملكة لا تتأثر بمعنى
الموجودين ، كما أن الإحساس بالغيب ملكة لا تتأثر بغفلة
العافين ولو كثروا بل سوف تكون كثرتهم زيادة في ميزانها يوم
الحساب .

إن العمدة في مسألة الدين والتدين هي الحالة القلبية .
ماذا يشغل القلب .. وماذا يجول بالخاطر ؟
وبم تتعلق الهمة ؟

وما الحب الغالب على المشاعر ؟
ولأى شيء الأفضلية القصوى ؟
وماذا يختار القلب في اللحظة الحاسمة ؟
وإلى أى كفة يميل الهوى ؟

تلك هي المؤشرات التي سوف تدل على الدين من عدمه ..
وهي أكثر دلالة من الصلاة الشكلية ، ولهذا قال القرآن .. ولذكر
الله أكبر .. أى أن الذكر أكبر من الصلاة .. برغم أهمية
الصلاة .

ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام لصحابته عن
أبي بكر .. إنه لا يفضلكم بصوم أو بصلاة ولكن بشيء وقر في
قلبه .

وبهذا الشيء الذي وقر في قلب كل منا سوف نتفاضل يوم
القيامة بأكثر مما نتفاضل بصلاة أو صيام .

إنما تكون الصلاة صلاة بسبب هذا الشيء الذي في القلب .
وإنما تكتسب الصلاة أهميتها القصوى في قدرتها على تصفيه
القلب وجمع الهمة وتحشيد الفكر وتركيز المشاعر .

وكثرة الصلاة تفتح هذه العين الداخلية وتوسع هذا النهر
الباطني ، وهي الجمعية الوجودية مع الله التي تعبر عن الدين
بأكثر مما يعبر أى فعل .

وهي رسم الإسلام الذي يرسمه الجسم على الأرض ،
سجوداً ، وركوعاً وخشوعاً وابتهالاً ، وفناء .. يقول رب العالمين
لنبيه :

﴿ اسجد واقترب ﴾ .

وبسجود القلب يتجسد المعنى الباطني العميق للدين ، وتتحدد
الصلة بأوتق ما تكون بين العبد والرب .

وبالحس الديني ، يشهد القلب الفعل الإلهي في كل شيء ..
في المطر والجفاف ، في الهزيمة والنصر ، في الصحة والمرض ، في
الفقر والغنى ، في الفرج والضيق .. وعلى اتساع التاريخ يرى الله
في تقلب الأحداث وتداول المقادير .

وعلى اتساع الكون يرى الله في النظام والتناسق والجمال ،
كما يراه في الكوارث التي تنفجر فيها النجوم وتتلاشى في الفضاء
البعيد .

وفي خصوصية النفس يراه فيما يتعاقب على النفس من بسط

وقبض ، وأمل وحلم ، وفيما يلقي في القلب من خواطر
وواردات .. حتى لتكاد تتحول حياة العابد إلى حوار هامس بينه
وبين ربه طول الوقت ..

حوار بدون كلمات ..

لأن كل حدث يجري حوله هو كلمة إلهية وعبرة ربانية ،
وكل خبر مشيئة ، وكل جديد هو سابقة في علم الله القديم .
وهذا الفهم للمشيئة لا يرى فيه المسلم تعطيلًا لحريته ، بل
يرى فيه امتدادًا لهذه الحرية .. فقد أصبح يختار بربه ، ويريد
بربه ، ويخطط بربه ، وينفذ بربه .. فإله هو الوكيل في كل
أعماله .

بل هو يمشي به ، ويتنفس به ، ويسمع به ، ويبصر به ، ويحيا
به . وتلك قوة هائلة ومدد لا ينقذ للعابد العارف ، كادت أن
تكون يده يد الله وبصره بصره ، وسمعه سمعه ، وإرادته إرادته .
إن نهر الوجود الباطني داخله قد اتسع للإطلاق .. وفي ذلك
يقول الله في حديثه القدسي :

« لم تسعني سماواتي ولا أرضي ووسعني قلب عبيد
المؤمن » .

هذا التصعيد الوجودي ، والعروج النفسي المستمر هو المعنى
الحقيقي للدين .. وتلك هي الهجرة إلى الله كدخًا .

﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فعلاقيه ﴾ .

ولا تجد غير الكدح كلمة تعبر عن هذه المعاناة الوجودية
الحلقة ، والجهد النفسي صعودًا إلى الله .
هذا هو الدين .. وهو أكبر بكثير من أن يكون حرفة
أو وظيفة أو بطاقة أو مؤسسة أو زيا رسميا .

أغمض عينيه وتجرد عن كل شيء حتى عن نفسه يلقبها هي
الأخرى وراء ظهره ، ويخرج من جلده إلى حالة من الخلو
والمحو واللاشيء .. إلى راحة العدم ..

ويختار المبشر لكل واحد من أتباعه تسبيحة يرددها .. هي في
العادة كلمات سنسكريتية لا تعنى بالنسبة للمريد أى شيء ..
وسوف تعاون هذه التسبيحة المريد على أن يخرج من نفسه أكثر ،
ويتجرد من عالمه ويخرج من حضرة الهم والفهم والتوتر إلى حضرة
أخرى مجردة تكون فيها راحته وخلوصه .

إنها دعوة إلى نوع من السكينة العقلية التي تأخذ فيها النفس
راحة وإجازة من معاناتها .. ورأيت مع المبشر كتباً ومنشورات
وبحوثاً علمية وإحصائيات تؤكد شفاء الكثيرين من ضغط الدم
والذبحة واضطراب الهرمونات والصداع المزمن بعد مباشرة هذه
الجلسات لمدة شهور .

وفي أحد هذه البحوث كان الطبيب يتابع ضغط دم المريض في
أثناء جلسة الاسترخاء فتسجل الأجهزة انخفاض الضغط
انخفاضاً ملحوظاً مع هبوط في تسارع النبض مع تغير في أخلط
الدم الكيمائية في اتجاه المزيد من التوازن .

وفي جلسة طويلة مع المبشر قال لي أنه ألقى عدة محاضرات في

الصلاة

آخر صبيحة في أمريكا الآن موضة جديدة اسمها
(Transcendental Meditation) وترجمتها الحرفية هي
الاستغراق التأملي المتجرد .. وهي موضة وافدة من الهند وبدعة
من بدع اليوجا .. وقد لاقت نجاحاً مكثفاً في المجتمع
الأمريكي شأنها شأن كل البدع الجديدة ، ووضعت فيها الكتب
والمؤلفات ، وأقيمت المؤتمرات وأصبح لها أتباع بالملايين ..
وأصبح لها رسل ودعاة ومبشرون ينطلقون إلى القارات الأربع
ومعهم الكتب والنشرات للدعوة للمذهب .. وقد التقيت بأحد
هؤلاء المبشرين في نادى الجزيرة يحاول أن يدعو لمذهبه .
والمذهب في اختصار شديد يدعو كل منا إلى أن يخصص بضع
دقائق من يومه يطرح فيها عن نفسه كل الشواغل ، ويلقى عن
باله كل الهموم ويستلقى في استرخاء كامل على كرسي وقد

النادى مع قارئى توضيحية تشرح مذهبه .. ولكنه اشتكى من عدم التجاوب بين المستمعين وأنه لم يلاق الصدى والنجاح الذى توقعه ..

وقلت له إن هذا أمر طبيعى ومتوقع .. فما تقوله وما تبشر به ليس أمراً جديداً على أسماعنا .. بل إننا نباشر هذه التمارين بالفعل كمسلمين خمس مرات فى اليوم .. فهى جزء من صلاتنا الإسلامية التى أمرنا بها نبينا عليه الصلاة والسلام .. فالصلاة عندنا تبدأ بهذا الشرط النفسى .. أن يتجرد المصلى تماماً عن شواغله وهمومه ، وأن يطرح وراءه كل شيء ، وأن يخرج من نفسه وما فيها من أطماع وشهوات وخواطر وهواجس هاتفاً .. الله أكبر .. أى أكبر من كل هذا ويضع قدمه على السجادة فى خشوع واستسلام كامل وكأنما يخرج من الدنيا بأسرها ..

ولكن صلاتنا تمتاز على التمرين الذى تبشر به .. بأنها ليست خروجاً من دنيا التوتر والقلق إلى عالم المحو الكامل وراحة العدم .. بل هى خروج إلى الحضرة الإلهية - إلى حضرة الغنى المطلق .. ونحن لا نستعين بسايبح وطلاسم سنسكرينية لا معنى لها ، وإنما نسبح بأسماء الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لتمثل فى قلوبنا تلك الحضرة الإلهية الجمالية التى ليس كمثله شيء .. وقلت له إن صلاتنا تعطى المؤمن كل الراحة والإجازة التى

تدعو إليها وزيادة .. فهى ليست مجرد سكتة عقلية ، بل صحوة قلبية وافتتاح وجدانى تتلقى فيه النفس شحنة جديدة من النور ونفحة من الرحمة ومدد من التأييد الإلهى .

إنها لحظة خصبة شديدة الغنى ، تعيد صلة المؤمن بالنبع الخفى الذى يستمد منه وجوده .

إن الانفصال عن دنيا النقص والشر والتوتر يواكبه الاتصال بعالم الكمال ومن هنا كان أثر الصلاة على المصلى مضاعفاً . وصلاتنا إذا صلاحها المسلم بحضور كامل ، واستغراق وفناء واندماج ، فإنها تكون شفاء من كل الأمراض التى ذكرتها وأكثر .

وإذا أجريت البحوث والفحوص على ما يحدث فى أثناء الصلاة لضغط الدم والنبض ، وتسجيل المنح الكهربائى ، وأخلاط الدم الكيميائية ، لكشفت عن نتائج أكثر إبهاراً مما ذكرت فى قارئتك .. ولكن للأسف لا أحد فى أمريكا أو أوروبا يرى إسلامنا على حقيقته ولا أحد يحاول أن يبحث فيه .

ولهذا سوف تظل صلاتنا الإسلامية كنزاً مخفياً لا يعلم ما فيه إلا من باشره بحضور كامل .. يقول لنا الله « أقيموا الصلاة » ولا يقول صلوا .. لأن الصلاة الحقيقية إقامة تشترك فيها جميع الأعضاء مع القلب والعقل والروح -

وخطأ الأوربي أنه يظن أن الصلاة « الإسلامية » هى مجرد

حركات وأنها على الأكثر مجرد اغتسال ورياضة « بدنية » ، ولهذا يقف عند ظاهر الأمر لا يتخطاه ..

وينسى أن الحركات في الصلاة مجرد رمز فهي وقوف إكبار لله مع كلمة الله أكبر ، ثم ركوع ثم فناء بالسجدة وملامسة الأرض خشوعاً وخضوعاً ، وبذلك تتم حالة الخلع والتجرد والسكينة « الكاملة » النفسية .. ولا يبقى إلا استشعار العظمة لله تسبيحاً .. سبحان ربي الأعلى وبحمده .. سبحان ربي الأعلى وبحمده ..

« وسبحان » معناها ليس كمثله شيء ، وهو اعتراف بالعجز الكامل عن التصور .. ومعناها عجز اللفظ وعجز اللسان وعجز العقل عن وصف المحبوب .

وتلك ذروة « نفسية » في النجوى :

وتلك هي وقفة الأدب حينها بلغ جبريل سدره المنتهى فلم يستطع أن يتخطاها .. وقال لو تقدمت لا احترقت .

وليس بعد هذه الوقفة إلا التجليات والتنزلات للكاملين الذين يؤهلهم التجرد الكامل لاستشراق الأنوار .

فالصلاة هي المعراج الأصفر وهي نصيب المسلم من المعراج الأكبر الذي عرج فيه محمد عليه الصلاة والسلام إلى ربه . وهي ليست مجرد حركات .. بل هي أسرار ورحمات . وأشرفها وأرفعها صلاة الفجر التي تشهدها الملائكة .. وصلاة

قيام الليل .. التي نال صاحبها بها المقام المحمود .

والصلاة هي الرصيد المتاح من الرحمة لكل مسلم في البنك الإلهي .. إن شاء أخذ منه وإن شاء ضل عنه وتكاسل فأضاع على نفسه كسباً لا يقدر بمال ..

وما زالت الصلاة كنزاً مخفياً لا تعلم عن أسرارها إلا أقل القليل ولا ينتهي في الصلاة كلام .

ما تحب وتحمل ما تكره .. أما إذا كان كل همك هو الانقياد
لجوعك وشهواتك فأنت حيوان تحركك حزمة برسيم وتردعك
عصا .. وما لهذا خلقنا الله .

الله خلق لنا الشهوة لتسلك عليها مستشرفين إلى شهوة
أرفع .. تتحكم في الهياج الحيواني لشهوة الجسد وتصعد عليها
لنكتفى بتلذذ العين بالجمال ، ثم نعود فنتسلك على هذه الشهوة
الثانية لتلذذ شهوة العقل إلى الثقافة والعلم والحكمة ثم نعود
فتسلك إلى معراج أكبر لنستشرف الحقيقة ونسعى إليها ونموت في
سبيلها .

معارج من الأشواق أدناها الشوق إلى الجسد الطين وأرفعها
الشوق إلى الحقيقة والمثال .. وفي الذروة .. أعلى الأشواق لرب
الكمالات جميعها . الحق سبحانه وتعالى ..
يقول الله في حديثه القدسي :

« يابن آدم خلقتك لي وخلقت الأشياء لك فلا تشتغل بما هو
لك عما أنت له » .

ولهذا سخر الله لنا الطبيعة بقوانينها وثرواتها وكنوزها ،
وجعلها بفطرتها تطاوعنا وتخدمنا فنحن لم نبذل مجهودًا كبيرًا
لنجعل الجمال يحمل أثقالنا ، أو الكلب يحرس ديارنا ، أو الأنعام
تنفعنا بفرائها ولحومها وجلودها .. وإنما هكذا خلقت مسخرة
طائعة .. وإنما العمل الذي خلقنا الله من أجله والتكليف الذي

الصيام

الصيام من الشعائر القديمة المشتركة في جميع الأديان .
وهو الجدل دائها يسألون .. كيف يخلق لنا الله فمًا وأسنانًا
وبلعومًا ومعدة لتأكل ثم يقول لنا صوموا .. كيف يخلق لنا الجمال
والشهوة ثم يقول لنا غضوا أبصاركم وتعففوا .. هل هذا
معقول ..

وأنا أقول لهم بل هو المعقول الوحيد .. فالله يعطيك الحصان
لتركبه لا ليركبك .. لتقوده وتخضعه لا ليقودك هو ويخضعك ..
وجسمك هو حصانك المخلوق لك لتركبه وتحكمه وتقوده
وتلجمه وتستخدمه لغرضك ، وليس العكس أن يستخدمك هو
لغرضه وأن يقودك هو لشهواته .

ومن هنا كان التحكم في الشهوة وقيادة الهوى ولجام المعدة هي
علامة الإنسان .. أنت إنسان فقط في اللحظة التي تقاوم فيها

كلفنا به هو أن نركب هذه الدواب مهاجرين إلى الهدف .. إلى
الله .. إليه وحده في كماله ..

﴿ بأنها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾
﴿ وما خلقت الجن والإانس إلا ليعبدون ﴾ .
وعبادة لا تكون إلا عن معرفة .

فالحياة رحلة تعرف على الله وسوف يؤدي بنا التعرف على الله
وكمالاته إلى عبادته .. هكذا بالفطرة ودون مجهود ، وهل نحتاج
إلى مجهود لنعبد الجميلة حياً ..

إنما تتكفل بذلك الفطرة التي تجعلنا نذوب لحظة التطلع إلى
وجهها ، فما بالناس لحظة التعرف على جامع الكمالات والذي هو
نبع الجمال كله .. إننا نفنى حياً .

وما الصيام إلا التمرين الأول في هذه الرحلة

إنه التدريب على ركوب الفرس وترويضه وتطويبه بتحمل
الجوع والمشقة وهو درس الانضباط والأدب والطاعة .

وهذه المعاني الراقية « الجميلة » ليس منها ما نعرف في صيام
اليوم من فوازير ونكات وهزليات وصوان ومكسرات وسهرات .
وإنما الصائم يفرغ نفسه للذكر وليس للتلفزيون .. ويخلو
للصلاة وقيام الليل وتلاوة القرآن وتدبر معانيه وليس للرفص

وترديد الأغاني المكشوفة .

وقد كان رمضان دائماً شهر حروب وغزوات واستشهد في

سبيل الله .

كانت غزوة بدر في رمضان .. كما كانت حرب التتار في
رمضان .. وحرب الصليبيين في رمضان .. وحرب إسرائيل في
رمضان .

ذلك هو الصيام الرفيع .. ليس تبطلاً .. ولا نوماً بطول النهار
وسهرًا أمام التلفزيون بطول الليل .. وليس قياماً متكاسلاً في
الصباح إلى العمل .. وليس نرفزة وضيق صدر ونوترًا مع
الناس .. فإله في غنى عن مثل هذا الصيام ، وهو يرده على
صاحبه ولا يقبله ، فلا ينال منه إلا الجوع والعطش .

وإنما الصيام هو ركوب لدابة الجسد لتكدح إلى الله بالعمل
الصالح والقول الحسن والعبادة الحقة .

واسأل نفسك عن حفظك من كل هذا في رمضان وستعلم إلى
أى حد أنت تباشر شعيرة الصيام .

الزكاة

كان من عادة إخواننا الشيوعيين حينما يذكر موضوع الزكاة أن يبتسم الواحد منهم في سخرية وكأنما وجد الثغرة التي ينفذ منها ، فالزكاة عنده هي الحل المخبجل لمشكلة العدل الاجتماعي ، فالعدل لا يعالج بالتسول وبتوزيع الصدقات ، وإنما بالبتر والاستئصال والنكال والتنكيل بالمستغلين الظالمين ، ونزع أصحاب المال وأصحاب الأرض من جذورهم بانقلاب شيوعي يصحح الأوضاع ، وهذا التوصيف الشيوعي للزكاة خاطئ .

ولكن نبرة العنف في كلام الرفاق تذكرني دائماً برأى قاله المفكر الإسلامي المغربي الدكتور المهدي بن عبيد : إن الشيوعية ليست نظرية وليست مذهباً وليست فكراً كل هذا تويه ، ولكن الشيوعية في الحقيقة طبع .. الشيوعية غل وحقد وضغن وطبيعة

تأريية تنزع بصاحبها إلى طلب النكال والتنكيل والإذلال والتسلط ، وهم لا يرون إصلاحاً إلا أن يكون يترأ واستئصالاً دموياً وقلباً لكل شيء من القواعد ، وهي طبيعة تلتبس دائماً المذهب الذي يساعدها ، ومن هنا كان اختيارهم للشيوعية لا عن اقتناع ولا عن منطق ولا عن عقل ، ولكن عن طبع ، وهم أنفسهم الذين اختاروا فيما مضى مذهب الخوارج والقرامطة والحرمية ، وهم أنفسهم الذين اختاروا فيما بعد التكفير والهجرة ، لأنه يشبع فيهم نفس الطبيعة .

ثم نعود إلى تصور الرفاق عن الزكاة ونقول لقد فهموها خطأ ، فليست الزكاة هي تفضل من الغنى يلقي به للفقير من باب حسنة لله يا محسنين ، وليست صدقة لمُتسول ، بل هي حق يؤخذ من خير مال القادر ، ويصل إلى يد المحتاج في كرامة ودون أن يسأل أو يجد يداً ، فما يصل إليه حق وليس تفضلاً ، وحكمه حكم الضريبة التي تؤخذ بقانون وتنفق بقانون .

ثم إن الإنفاق ليس له حد أقصى فهو في حده الأدنى اثنان ونصف في المائة ، وتلك هي الزكاة المفروضة ، ولكنه مفتوح في حده الأقصى إلى ما شاء الله وما شاء كرم المعطى وإيمانه .

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ .

أي كل ما تراه زائداً عن حاجتك حتى ٩٩ في المائة مما تملك إذا اعتبرت أن حسابك لقمّتك وثوبك وكفافك والباقي لله فهي

تجارة مع الله وتعامل مع الخالق وليست تفضلاً على الخلق ، ولكن مثل هذا الإنفاق الزائد ، لا يكون إلا تطوعاً واختياراً من صاحبه وليس فرضاً من أحد ، وهي من حيث اسمها « زكاة » ، فهي تزكية لصاحبها وتطهير له .. يتطهر بها من الشح والبخل والأنانية فالمنتفع الأول منها صاحبها .

والصدقات أوساخ الناس كلما أنفقت منها تطهرت وَصَفَتْ نفسك من تعلقاتها المادية الأرضية .

ولا ينقص مال من صدقة .. وما أنفقت من مال فإن الله يخلفه قد يخلفه الله مالا أو صحة أو رحمة أو ذرية صالحة أو نجاحاً أو توفيقاً ، ولكن لا بد من أن يشيب الله فاعل الخير دنيا وآخره هذا قانون إلهي لا يتخلف ويعرفه تماماً الذين يقبلون على الزكاة ويتنافسون فيها والله لا يخلف وعده أبداً .

والزكاة تُلطف الحقد وتكسر العين الحاسدة وتؤلف القلوب ، لأنها مال حلال يخرج من صاحبه حباً وكرامة وطواعية ويصل إلى المستحق دوناً من ولا أذى .

وإذا أدخلنا في نصاب الزكاة ، زكاة الشركات وزكاة البنوك ، وزكاة المؤسسات التجارية ، وزكاة الدول التي خصها الله بالموارد والثروات ، فإن مجموع النصاب الناتج سيتجاوز المليارات عدداً ، وسيصبح في طاقته أن يغير موازين الاقتصاد الموجودة تماماً ، ثم إن إنفاق هذه المليارات بأسلوب عصري

واستثمارها لصالح الطبقة الفقيرة ، ولخلق المشاريع لتشغيل الأيدي العاطلة وبناء الصناعات . والارتفاع بالتعليم كقيل بأن يغير وجه الحياة دون عنف ودون قهر ودون نكال أوتنكيل .. هكذا تلتقى الأيدي في محبة وتعاون وتكافل فيثمر الخير مزيداً من الخير ، أما العنف الشيوعي فلن يثمر إلا عنفاً ، ولن يثمر القهر إلا رفضاً وكسلاً ولا مبالاة ، ولن يثمر التسلط إلا يأساً وسلبية وينتهي الأمر بأن ينفذ كل واحد يده من كل شيء ، ويقول لتفعل الدولة ما تريد ، ولكن الدولة في الشيوعية ليست كائناتاً حياً سوياً ، وإنما هي ديناصور ومسح شانه من القوى البوليسية والشعب الخائف المذعور ، ثم طواغيت ومراكز قوى تعمل طليقة باسم الحزب وتظلم وتستغل ، وتتهب كما تشاء باسم الحزب ، وتنطى جرائمها بالشعارات والأكاذيب والإعلام الموجه .

وشتان بين هذا التكوين الاجتماعي المتشنج وبين التكوين المتناسق للمجتمع الإسلامي الذي يعمل فيه الكل مؤمنين بأن العمل عبادة ، وأن الإنفاق تعامل شخصي مع الله ، وأن الصدقة تقع أولاً في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير ، وأن علاج المريض عبادة ، وإقامة جدار عبادة ، وإنشاء كوبرى عبادة .. وأن المعروف لا يضيع والعمل الصالح لا يذهب سدى ، وأن الملك له مالك ، وأن في السماء إلهاً عادلاً عدله لا يتخلف ، وكل هذا يثمر

سكينة ورضا وراحة قلب تساوى الدنيا وما فيها .

فأين هذا من حال مجتمعات الوفرة والرفى التى ينتشر أصحابها برغم الوفرة ، وترتفع فيها إحصاءات الجنون والأمراض النفسية والقلق والاكتئاب برغم الغنى ، وتتحلل الأسر وتتفكك العائلات وتنتشر المخدرات والشذوذ الجنسي والجرائم والسرقات ، برغم العلم والتكنولوجيا والنقد وتضاعف أعداد مراكز البوليس وأقسامه ، ومع ذلك لا تشعر بلحظة أمن ولا تستطيع أن تخرج دولاراً من جيبك ، ولا أن تنام دون أن تغلق المزاليج والترايبس خلف بابك .

لأنها مجتمعات مادية كل ملهم فيها محسوب بالكمبيوتر ، ثم لا اعتبار عندها لأى شيء آخر .. أو بشكل أدق لا تؤمن بأن هناك شيئاً آخر خارج اللحظة الحاضرة والدولار الذى فى جيبك .. لا حساب لشيء اسمه الغيب ولا اعتقاد فى إله . والذين يؤمنون منهم بالله لا يدخلون هذا الإيمان فى حساب الكمبيوتر ، وهم لهذا يستبدلون الزكاة بشركات التأمين ومعاشات النقابات وبدلات البطالة ، وكلها صدقات ، ولكن ذات منطلق مختلف ، فهى لا تعطى لوجه الله ، وإنما اجتهد علمى من عند صاحبها .. ولسان حال كل منهم يقول :

﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ .

وفارق كبير فى النية والصفائية بين العاملين فأحدهما يقول :

وفقنى الله فأعطيت ما أعطيت ابتغاء وجهه ، والآخر يقول :

« اجتهدت من عندى وأنفقت وأعطيت » .

فأحدهما لا يرى إلا الله والآخر لا يرى إلا نفسه .. ولهذا ينتهى عمله إلى الإحباط أما العمل الأول فإن فيه ينم ، بكرمه وحفظه برعايته .

وتلك هى الزكاة .. مرهناً وبلساً وملطفاً وشفعةً لنفس ، وطهرة للقلب ، وهى تعامل مع الله رأساً دون رسالته ، وإيمان بالغيب وثقة فى المقدور ، ويقين بقوانين العدل التى لا تتخلف ، وهى شيء آخر تماماً غير مفهوم للعروة الاجتماعية فى المجتمع الغربى وقد يسأل سائل فيقول أنيس كزها عملاً صالحاً ..

فنقول نعم مع فارق كبير فى العرفان ، فأن فى الزكاة لا تعرف لك يداً ولا ترى لك يداً ، ولا ترى إلا ربه سبحانه الذى ليس كمثله شيء .

أما فى المعونة الاجتماعية بالكمبيوتر فلا ترى إلا الورقة المرقمة الخارجة من الكمبيوتر ، ولا ترى إلا يدك وما تبذل .. وعلى الأكر لا ترى سوى إنسانيتك .

والفرق فرق عرفانى .

وهل الدين كله إلا هذه الكلمة الصغيرة ذات الحروف القليلة .. لعرفان .. ؟ وهل طلب الله من نبيه سوى العرفان ؟

فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك .

وهل يفرق مؤمن عن كافر إلا بهذه المعرفة ، الذين يرجون

أيام الله ، والذين لا يرجون أيام الله ، والذين يوقنون بالآخرة

والموقف والحساب . والذين لا يؤمنون إلا بيومهم ولحظتهم ..

صدقوني إن كلمة الزكاة تعني الكثير ..

الحج

الجمعة .. الشمس تنحدر إلى المغرب على جبل عرفات .

الجبل مزروع بالخيام .. مليون وخمسمائة ألف حاج يحيطون

عليه كالحمام في ثياب الإحرام البيض .. لا تعرف الواحد من

الآخر .. لا تعرف من الفقير ومن الغني .. ولا تعرف من

التركي ومن العربي ؟ .

اختفت الجنسيات .. واختفت الأزياء المميزة واختفت

اللغات .. الكل يلهج بلسان واحد .. حتى الجاوي والصومالي

والأندونيسي والزنجي والأذربيجاني الكل يتكلم العربية ..

بعضهم ينطقها مكسرة وبعضهم ينطقها بلكنة أجنبية .. وبعضهم

يعد بعض الحروف ويأكل بعض الحروف ولكنك تستطيع أن تفهم

من الجميع وتستطيع أن تسمع أنهم يهتفون .. لبيك اللهم لبيك .

والذين لا يعرفون العربية تراهم قد التفوا حول مطوف

يرددون وراءه الدعاء العربي حرفاً حرفاً في خشوع وابتهاال .
في البقعة التي كنت أقف فيها أكثر من خمس عشرة جنسية
مختلفة في مكان لا يزيد على أمتار معدودة - التركستان
والباكستان وكازخستان وغيانيا وغانا ونيجيريا وزنبار وأوغندا
وكينيا والسودان والمغرب واليمن والبرازيل وإسبانيا والجزائر
وسيلان .. كلهم حولي يتصافحون ويتبادلون التحية ، وهنيئاً
بعضهم بعضاً .

ولولا أن المطوف أخبرني بهذه الجنسيات لما عرفتُها ، فالكل
كانوا يبدون لعيني وكأنهم عائلة واحدة في مجلس عائلي حميم ..
على بعد خطوات كان أكثر من ستين هندياً يلتفون حول
مطوف هندي ، وهو الآخر فيما يبدو يقرأ لهم الدعاء العربي من
كتاب في يده .. وهم يرددون خلفه الدعاء وهم يبتسمون وقد
تخلصت لحاهم الطويلة الكثة بالدموع .

وهم فعلاً لم يكونوا يعرفون العربية ، ولم يكونوا يدركون
معاني ما يرددون من حروف .. وإنما شعروا بها بقلوبهم فبكوا .
كان كل واحد يشعر أنه يخاطب الله بهذه الحروف وأنه في
حضرة الله وفي ضيافته وفي رحابه .. وأنه يقف حيث كان يقف
محمد عليه الصلاة والسلام .. النبي العظيم البدوي الفقير
الأمي .. وأنه يسجد حيث كان يسجد ، ويركع حيث كان
يركع ، ويردد ما كان يردده من دعاء .. بذات اللسان العربي ..

وفي ذات اليوم .. يوم الجمعة من ذي الحجة .. رجع ذبذبات
صوت النبي وأصوات أصحابه مازت في انحاء حوله ..
فلا شيء يقف في الطبيعة ولا شيء يستحدث
عرفت أن هؤلاء الستين هم من أفتر طائفة هندية وأنهم جاءوا
إلى مكة على الأقدام وعلى سفن سريعة وسير جمال .
وكان زعيمهم يحمل علماً عبارة عن خروف ممزقة .
وبعضهم جاوز الثمانين .. وبعضهم كف بصر .. وبعضهم
كان يحمل بعضاً .

وكان الكل يبكون بحرقة ويذوبون خشوعاً .
كانوا فقراء حقاً .

وعلى بعد خطوات كان هناك هندي آخر ، من لي المطوف
إنه مهراجا يملك عدة ملايين .. وكان بذات ملابس الإحرام
البيضاء .. وكان يبكي بذات الخشوع .. وكان مشلولاً يحمله
أتباعه على محفة .

كان فقيراً هو الآخر حقاً .

ومن منا ليس فقيراً إلى الله .

إن الملايين لا تعفى أحداً من الشيخوخة والعمى والمرض

والموت .

إن السيد رحمة ميرزا بالأنفلورا روبران بنفس
الأشراض في السيد يعاني داءاً أشد من الخادم .

ويستنجد بعشرات الأدوية والعقاقير ، ويجمع حوله الأطباء
فلا يفعل له العلم ولا الطب شيئاً .. وكانوا يقولون لنا في كلية
الطب على سبيل السخرية .. إن الأنفلونزا تشفى في سبعة أيام
بدون علاج .. وفي أسبوع إذا استخدمنا العلاج .

والأنفلونزا مرض بسيط .. تافه .. هي مثل من ألف مثل
لضعف الإنسان وحاجته وفقره الحقيقي مهما كثرت في يده
الأموال وتعددت الأسباب .

من منا ليس فقيراً إلى الله وهو يولد محمولاً ويذهب إلى قبره
محمولاً وبين الميلاد والموت يموت كل يوم بالحياة مرات ومرات .

وأين الأباطرة والأكاسرة والقيصرة ؟

هم وإمبراطورياتهم آثار .. حفائر .. خرائب تحت الرمال .
الظالم والمظلوم كلاهما رقداً معاً .

والقاتل والقتيل لقياً معاً نفس المصير .

والمنتصر والمهزوم كلاهما توسداً التراب .

انتهى الفرور .

انتهت القوة .. كانت كذبة .

ذهب الغنى .

لم يكن غنى .. كان وهماً .

العروش والتيجان والطبائس والخز والحزير والديباج .. كل

هذا كان ديكوراً من ورق اللعب .. من الخيش المظلي والديمور
المشروش .

لا أحد قوى ولا أحد غنى .

إنما هي لحظات من القوة تعقب لحظات من الضعف يتداولها
الناس على اختلاف طبقاتهم .

لا أحد لم يعرف لحظة النش ، ولحظة الضعف ، ولحظة
الخوف ، ولحظة القلق .

من لم يعرف ذل الفقر ، عرف ذل المرض ، أو ذل الحب
أو تعاسة الوحدة ، أو حزن الفقد ، أو عار الفضيحة أو هوان
الفشل أو خوف الهزيمة .

بل إن خوف الموت ليلحق فوقاً رهوسنا جميعاً .

كلنا فقراء إلى الله . كلنا نعرف هذا .

وهم يعرفون هذا جيداً .. ويشعرون بهذا تماماً . ولهذا
يكون .. ويذوبون خشوعاً ودموعاً .

سألني صديقي وهو رجل كثير الشك :

- وما السر في ثياب الإحرام البيضاء وضرورة لبسها على

اللحم وتحريم لبس المخيط .. وما معنى رجم إبليس والطواف

حول الكعبة .. ألا ترى معنى أنها بقايا وثنية .

قلت له : أنت لا تكفى بأن تحب حبيبك حباً عذرياً

أفلاطونياً ، وإنما تريد أن تعبر عن حبك بالفعل .. بالقبلة

والعشق واللقاء .. هل أنت - وثني ؟

وبالمثل من يسعى إلى الله بعقله وقلبه .. يقول له الله : إن هذا لا يكفي .. لا بد أن تسمى على قدميك .

والحج والطواف رمز لهذا السعي الذي يكتمل فيه الحب شعوراً وقولاً وفعلًا .

وهنا معنى التوحيد .

أن تتوحد جسداً وروحاً بأفعالك وكلماتك .

ولهذا نركع ونسجد في الصلاة ولا نكتفى بخشوع القلب ..

فهذه الوحدة بين القلب والجسد يتجلى فيها الإيمان بأصدق مما يتجلى في رجل يكتفى بالتأمل .

أما ثياب الإحرام البيضاء فهي رمز الوحدة الكبرى التي تذوب فيها الأجناس ويتساوى فيها الفقير والغني .. المهرابا وأتباعه .

ونحن نلبسها على اللحم .. كما حدث حينما نزلنا إلى العالم في

لحظة الميلاد وكما سوف يحدث حينما تغادره بالموت .. جثنا ملفوفين في لفافة بيضاء على اللحم .. ونخرج من الدنيا بذات اللفة .

هي رمز للتجرد .. لأن لحظة اللقاء بالله تحتاج إلى التجرد كل التجرد .

ولهذا قال الله لموسى :

﴿ اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس ضوى ﴾ .

هو التجرد المناسب لجلال الموقف .

وهذا هو الفرق بين لقاء لرئيس جمهورية .. ولقاء مع الخالق .

فنحن نرتدى لباس التشريفه لنقابل رئيس الجمهورية .

أما أمام الله فنحن لا شيء .. لا تكاد نساوى شيئاً .

وعليتنا أن نخلع كل ثياب الغرور وكل الزينة .

قال صديقي في خيث : ورجم إبليس :

قلت :

- أنت تضع باقة ورد على نصب تذكاري للجندى المجهول ،

وتلقى خطبة لتحيته .. هل أنت وثني ؟

لماذا تعتبرني وثنيًا إذا رشقت النصب التذكاري للشيطان

بحجر ولعنته .. إنها نفس الفكرة .

إنها كلها رمزيات .

أنت تعلم أن النصب التذكاري مجرد رمز ، وأنه ليس

الجندى .

وأنا أعلم أيضاً أن هذا لتمثال رمز ، وأنه ليس الشيطان .

وبالمثل السعى بين الصفا والمرورة إلى حيث نبعت عين زمزم

التي ارتوى منها إسماعيل ومه هاجر .. هي إحياء ذكرى عزيزة

ويوم لا ينسى في حياة النبي والجد اسماعيل وأمه المصرية هاجر .

وجميع شعائر ديانتنا ليست طقوساً كهنوتية بالمعنى المعروف ، وإنما هي نوع من الأفعال التكاملية التي يتكامل بها الشعور والتي تسترد بها النفس الموزعة وحدتها ..

إنها وسيلة لخلق إنسان موحد .. قوله هو فعله .. فالكرم لا معنى له إذا ظل تصريحاً شفوياً باللسان ، وإنما لابد أن تمتد اليد إلى الجيب ثم تنبسط في عطاء ليكون الكرم كرمًا حقيقيًا .. هل هذه الحركة وثنية أو طقسية كهنوتية ؟

وبهذا المعنى ، شعائر الإسلام ليست شعائر ، وإنما تعبيرات شديدة البساطة للإحساس الديني .

ولهذا كان الإسلام هو الدين الوحيد الذي بلا طقوس وبلا كهنوت وبلا كهنة .

ألا تراهم أمامك أكثر من مليون يكلمون الله مباشرة بلا واسطة ويركعون على الأرض العراء حيث لا محاريب ولا مآذن ولا قباب ولا منابر ولا سجاجيد ولا سقف منقوشة بالذهب ولا جدران من المرمر والرخام .

لا شيء سوى العراء .

ونحن عراء .

ونفوسنا تعرت أمام خالقها فهي عراء .

ونحن نبكى .. كلنا نبكى .

وسكت صديقي وارتفعت أصوات التلبية من مليون وخمسمائة ألف حنجرة .. لييك اللهم لييك .. لييك لا سريك لك لييك . وكنت أعلم أن صديقي مازال بينه وبين الإيمان الحقيقي أشواط ومراحل ومعراج من المعاناة .

مازال عليه أن يصعد فوق خرائب هذا بناء المنطقي الذي اسمه العقل ويستشرف على ينابيع الحقيقة في تنقيها البكر داخل قلبه .. حينئذ سوف يكف عقله عن اللجاجة والتقطع ويلزم حدوده واختصاصه . ويدرك أن الدين أكبر من مجرد قضية منطقية ، وأنه هو في ذاته منطق كل شيء .. وإن الله هو البرهان الذي نبرهن به على وجود الموجودات لأنه فيرمها (هو الذي أوجدها من العدم فهي موجودة به وبفضله) ، فهو برهان عليها أكثر مما هي برهان عليه .. وكيف يكون لعدم برهاننا على الوجود .. وكيف يكون المعدم شاهدًا على موجد الوجود . إنها لاجاجة العقل .. وهي سلسلة من الخرائب المنطقية لابد أن تمر بها في معراجنا للوصول إلى الحقيقة .. وهذا عيب العصر الذي يدعى فيه العقل كل شيء .

وعصرنا للأسف عصر العلوم الوضعية ونطق الوضعي .. هو عصر الألكترونيات والكهرباء والكيمياء والطبيعة . والواحد منا في بداية تلقيه لهذه العلوم الوضعية ، ولفرط

انبهاره بها وبمنجزاتها يتصور أنها علوم كلية يمكن أن يناقش بها الأمور الكلية مثل الوجود الإلهي فيقع في خطأ من يحاول أن يقيس السواء بالشير ويزن الحب بالدرهم .

وتمضي عليه سنوات من التمزق والمعاناة قبل أن يكتشف أن الطبيعة والكيمياء علوم جزئية تبحث في المقادير والعلاقات واختصاصها هو القضايا الجزئية ، وهي لا تصلح بطبيعة معاييرها للحكم على الدين لأنه قضية كلية .

الدين هو العلم الكلي الذي يحتوى على كل تلك العلوم .. في حين لا يحتوى عليه أى منها .

وعندنا نور آخر نستدل به على الحقيقة الدينية ، نور القلب وهدى البصيرة واستدلال الفطرة والبداهة .

هنا نور نستشف به الحقيقة بدون حيثيات .

هنا منطقة في الإدراك هيأها الله للإدراك المباشر .

وهي مرتبة أعلى من مراتب الشعور العادى .

وكما أن العقل أعلى في الرتبة من حاسة مثل الشم واللمس ، كذلك البصيرة أعلى في الرتبة من العقل ومن الإدراك بالمنطق العقلى الجدلى .

والبصيرة هبة متاحة لكل منا ، ولكن صدأ العرف والتقليد والادعاء العقلى ، والأحكام الجاهزة الشائعة . هذا عدا الغرور وظلمة الشهوات والرغبات وسعار الأحقاد والمطامع .. كل هذه

الفواشى ترين على مرآة البصيرة فتحجب نورها الكاشفة . ويمضى العمر والإنسان يصارع هذه الرغبات وتمزق ، ويعانى ويسأل ويتساءل ويحفر ، في داخل نفسه حتى تنهتك الأستار ، وتتجلى الفواشى ، وبدأ يترك الخفية بهذه الرؤية الكلية التى هى هبة بصيرته .

وهنا يبدأ يعرف ما هو الدين .

وقد يرى بالبصيرة من لا يحمل الشهادة .

وقد تعمى بصيرة المتعلم الموهل في الجمود .

وجلاء القلب فضل إلهى قد يوهب وقد يكتسب ، ولا توجد

شروط في المعارف الإلهية . وهذا الهندي المسبب الفقير الخافى

العارى الفارق في دموعه قد يعرف عن الله أكثر مما نعرف نحن

الذين نكتب في الدين واه .

وربما لو سأنته عن شعوره لما استطاع أن يشرح في عبارات

مثل العبارات المنمقة التى نكتبها .. وهو أمر مهم .. فالمعارف

العالية قد تعلو على العبارة وقد تعجز عنها بعبارة .. فلا يبقى

إلا الصمت والدموع .

ولهذا هم يبيكون على عرفات في لحظة لقاء مع النفس والله ..

تبدو فيها الكلمات مبتذلة .. واللسان مغلط ، والعبارات

خرساء ، فلا تبقى إلا الدموع ، وهى دموع حرج وحزن وندم

ونوبة وتطهر وميلاد .

وهي فجر روحي يعرفه من جربه .

وقد توحى اللحظة الواحدة والظرف الواحد بشيئين مختلفين تماماً وربما متناقضين . فحينما كنا نطوف بالكعبة في زحام من ألوف مؤلفة ، كان صديقي يلهث مختنقاً وكل ما يخطر له بالمناسبة هو تخيله لو كانت هذه الكعبة في أوروبا في برلين مثلاً ، إذن لاختلف الأمر ولطاف حولها الأوروبيون في طوابير منظمة لا يزحم فيهم الواحد الآخر .. بينما كنت أنا أنظر إلى الألوف المؤلفة التي تدور كالذرات البيضاء وأرى فيهم الملايين بلا هوية ممن حجوا وطافوا وعاشوا وماتوا .. أرى فيهم أبي وأمي .. كانوا هنا يطوفون منذ سنوات في هذا الزحام نفسه .. ومن قبلهم جدى الذى جاء إلى هنا على ظهور الإبل .. ثم الأجداد .. وأجداد الأجداد من قبل إلى أيام النبی الذى خرج من مكة مهاجراً وعاد إليها فاتحاً .. كنت أنظر في المجموع الحاشدة من منظور تاريخي وفي خناق الزحام نسيت نفسي تماماً ، وفقدت هويتي ، ولم أعد أعرف من أنا .. هأنذا قد مت أنا الآخر .. وهذا ابني يطوف ويذكرني وهو يطوف ، ثم يموت ذات يوم ويصبح هو الآخر ذكرى . كانت لحظة روحية شديدة التوهج فقدت فيها إحساسى بذاتى تماماً ، وغبت عن نفسي وامتلات إدراكاً بأنه لا أحد موجود حقاً سوى الله .. وتذكرت السطر الأول من قصة الخلق . في البدء كان الله ولا شيء معه .

وفي الختام يكون ولا شيء بعده .
هو الأول والآخر .
هو ..

نعم هو ولا سواء .

كانت لحظة من المحو الكامل لكل شيء بما في ذلك نفسى ذاتها ، في مقابل ملء مطلق وملاء مطلق لموجود واحد مطلق هو الله .

وبالرغم من الإحساس بالغياب فإنه كان إحساساً في الوقت ذاته بالحضور .. الحضور الشامل المهيمن المألئ لكل ذرة من الشعور .. حضور ماذا .. ؟

وأحار في وصف تلك اللحظة ولا أجد الألفاظ ولا العبارات وأكتفى بأنها أعمق ما عشت من لحظات .

إنها أنسبه بعدة ستائر تفتح متتالية بعضها من وراء البعض .. تفتح ستارة لتكشف عن مسرح صغير هو الواقع الفردى بتفاصيله ، ثم تفتح ستارة في العمق لتكشف عن واقع آخر خلفي كبير ، هو الواقع التاريخي يتلع الواقع الأول بما فيه . ثم تفتح ستارة ثالثة في العمق البعيد تكشف عن حقيقة أخذك التي يبهت أمامها كل شيء .

هو إحساس ديني يصعب تصويره في كلمات
هو أشبه بموقف مقاتل على الجبهة .

إنه في تلك اللحظة ينسى همومه الصغيرة .

هموم وطنه تبتلع همومه .

وجراح وطنه تبتلع جراحه فينسى مشكلات بيته الصغير
ويذوب في مشكلات مجتمعه الكبير .

هناك حضور أكبر ابتلع الحضور الأصغر .

وبمثل لحظة الوقوف في حضرة الله .

هنا الحضرة العظمى .. حضرة الحق .

وهي حضرة هائلة تذوب أمامها الحواس تمامًا .

يفنى الواقع الصغير .. واقع النفس ومتكلائها اليومية .. ثم

الواقع الزمني المحيط بتفاصيله .. ثم الواقع التاريخي كله .

ثم يكون فناء النفس ذاتها في لحظة احتواء كامل من ذات

عظمى مهيمنة .

هي لحظة صوفية نعرفها في الحب .. وروحنا لنا المحبون .

والحب البشري لا شيء بالنسبة للحب الإلهي .

وجمال امرأة لا شيء بالنسبة للجمال المطلق الكلي .

أين كان صديقي من هذا كله ؟

ما أبعد كل منا عن الآخر مع أن ذراعى في ذراعه .. كان

يفكر ويعتلق ويرتب الحشيات .

وكنت أذوب حباً وقد قفزت في اللحظة فوق حاجز العمل

وجاوزت في الحدود والتفاصيل لتضعني على ذروة أرى منها رؤية

كلية . وأدرك منها إدراكاً كلياً .

هو الحب .

والدين في جوهره حب .. والحج هجرة إلى بيت الحبيب

والطواف للعشاق .

هؤلاء لا يجدون فيه كلفة ولا تكليفاً .

وإنما يجدون حوراً مؤنساً .. ومكاملة من تلك المكالمات السرية

التي تضيء مجاهيل القلب .

وما أكثر ما شعرت به في الكعبة بما لا أجد له كلمات .

قد يسأل سائل : لماذا نتكبد الشاق لنذهب إلى الله في رحلة

لحج .. ولماذا هذه الهجرة المضنية .. والله معنا في كل مكان .. بل

هو أقرب إلينا من حبل الوريد . وهو القائل إنه ﴿ قريب مجيب

الدعوات ﴾ .. بل إن قربه لنا هو منتهى القرب .. فما الداعي

إلى سفر وارتحال لنقف فوق عرفة ندعوه منها .. وهو القريب منا

قرب الدم من أجسادنا .

والسؤال وجيه .

والحقيقة أن الله قريب منا بالفعل وأقرب إلينا من الدم في

أجسادنا . ولكننا مشغولون على الدوام بغيره .

إنه لا يقيم دوننا الحجب ولكننا نحن الذين نقيم هذه

الحجب .. نفوسنا بشواغلها وهمومها وأهوائها تلفنا في غلالات

مكتفة من الرغبات .. وعقولنا تضرب حولنا نطاقاً من الغرور ..

ومعه الاكتفاء النشيع بصحبة الخالق والائتناس به .
ولا يفهم من هذا تواكل .. لأن الرجل يصف ما بينه
وبين الله وليس ما بينه وبين الناس .. ولو أنه وجد بين الناس
شراً لقومه بالسيف .. فهذا الرجل نفسه هو المقاتل أبو ذر
وأمثاله .. وهو نفسه الذي يثور على الحاكم الظالم .. فالامثال لله
شيء غير الامثال لعباد الله ، بل هو عكسه وتقيضه .
فخادم الله هو أول من يثور على عباد الله دون خوف ..
والخائف من الله لا تساوى عنده الدنيا شيئاً فهو أول من
يضحى بها وينفسه تحت ظلال السيوف في سبيل كلمة حق .. لأن
الله عنده هو الحق .. وعشق الله هو الموت في سبيله .
وهذا هو توكل الإسلام وهو غير تواكل الكسالى الشحاذين
من مفترشى الأرصفة .. وهؤلاء ليسوا مسلمين أصلاً .

وليس كل من يتمتم :

﴿ قل هو الله أحد ﴾ بمسلم موحد .

والمهم ماذا تقول أعماله ..

إذا كان يعتقد حقاً أن الله أحد لا سواه ، هو الضار النافع ،
فلماذا يمد اليد إلى غيره ولماذا يتزلف ولماذا يتملق ، ولماذا يكدس
المال والعقار وهو يعلم أن الله هو المالك الوحيد للأرض
وما عليها وهو الوارث لكل ؟ ولماذا يكذب والله سميع ؟ ولماذا
يسرق والله بصير ؟ ولماذا ينافق والله حسيب ؟ ولماذا يخون والله

رقيب ؟ ولماذا يهرب والله شهيد ؟
والتوحيد أعمال وليس نعمة ورحمة .
والشكر أعمال وليس ﴿ الحمد لله ﴾ على اللسان ..
يقول الله لآل داود ..
﴿ اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾
لأن المقصود بالشكر الأعمال الدالة على الشكر وليس
التمتعة .. اعملوا آل داود شكراً .. اعملوا ..
والقرآن سياق متصل مستمر .. لكلمة اعملوا .. يبدأ بكلمة
« اقرأ » للعلم ..

وبعد العلم يكون العمل على مفتضى التوحيد .

وهذا هو الدين ..

قل : لا إله إلا الله واستقم على معناها .

وهذه هي رحلة الهجرة إلى الله .. والحج والصلاة والصيام

صورتها البدنية .

والحج في معناه خروج .

خروج من أسماننا إلى أسماء الله .

وخروج من اعتدادنا بأنفسنا إلى الاعتداد به . وخروج من
العبودية للأسباب (المال والولد والأرض والعقار والمنصب
والسلطة والنفوذ والجاه) إلى عبودية له وحده باعتباره سبب
الأسباب .

وخروج من حولنا وقوتنا إلى حوله وقوته .
وخروج من إرادتنا إلى إرادته ، ومن رغبتنا إلى رغبته يقول
نبينا محمد عليه الصلاة والسلام :
« اللهم بك انتشرت ، وبك أمنت ، وبك اعتصمت . اللهم
بك أصول وبك أجول »
« اللهم بك أصبحت وبك أمسيت ولا فخر لى »
ويقول عن الحج :

« من خرج يريد الطواف خاض في الرحمة »
وتفسير الرحمة إن الله يجذب همه عبده إليه ويعصمها من
النفرة .

ويقول عن الركوب للسفر :
« فإذا ركب الحاج الراحلة في الظاهر يشهد في السر أن الله
الذى يحمله » وهى ذروة في التوحيد ، فهو لا يعود يرى
الآفة أو القطار أو الطائرة ، وإنما الله هو الذى يحمل المسافر
أسبابه وقوانينه .. تختفى الأسباب ليظهر ، المسبب ويختفى
الخالق ليظهر الخالق .

وهكذا تكون كل خطوة بالقدم ترافقها خطوة بالقلب إلى
من التوحيد .. ويكون مع طى الأبعاد طى داخل للصفات ،
العبد بصفاته من صفات ربه ، فيكون الرحيم الكريم
الودود الرؤوف الصبور الشكور ما استطاع .. وهو صعود

ومعراج لا نهاية له .. لأن كمال الله لا نهاية له .
وهكذا يقطع المهاجر إلى الله مرحلة بعد مرحلة حتى يصل إلى
المقامات ، فيفتى عن نفسه ويموت عن صفاته ويصبح خاله في
الظاهر والباطن حال من يحيا بالله ، وحينئذ يحق عليه الغسل
وليس ثوب الإحرام على العرى فهذا هو ثوب الميت المولود ..
وهو ثوب من قطعتين رمزاً لستر العورة الظاهرة وستر العورة
الباطنة .. والحياء هنا على وجهين حياء من الخلق وحياء من
الحق .. حياء من سوء الخلق الظاهر الذى تعرفه الناس ، وحياء
من العورة الباطنة التى لا يراها إلا الله - ومن هنا كانت
المرقتين الرمزييتين .

أما النحر والذبح فهو في حقيقته ذبح للنفس ورغباتها
وشهواتها وأهوائها .. وقد افتدى الله النفس بذبح الضحية ..
فتضحى ببعض مالك رمزاً لقتل شهواتك وهوى نفسك .
أما تقبيل الحجر الأسود فهو تزود من غائب ، فأنت تضع
شفئك حيث وضع النبى شفته .

والحكايات عن أصل الحجر الأسود والكعبة كثيرة .. فهى
بيت العبادة الأول اتخذ آدم وأرشده جبريل إلى مكانه .. وحينما
غرقت الكعبة في الطوفان استودع الله الحجر في جبل
أبي قبيس - وظل الأنبياء يطوفون بمكان الكعبة حتى جاء
إبراهيم فأقام قواعدها وأعاد جبريل الحجر إلى مكانه .

وفي عام مولد النبي كانت غزوة الفيل المعروفة وهدم الكعبة كما أنه في عام ٣١٧ هجرية هجم أبو طاهر القرمطي على مكة وقتل وسبى ثم اقتلع الحجر الأسود وحمله معه إلى الأحساء .. وقد تبرأ عبد الله المهدي من فعل أبي طاهر ومن أخذه الحجر الأسود وقتله الحجيج ، فبعث إليه برد الحجر الأسود ، ولكنه لم يستجب وبقي الحجر ٢٢ سنة ثم نقل إلى الكوفة عام ٣٣٩ هجرية ، ومنها أعيد إلى مكانه في البيت .

ويرد بعض المؤرخين اقتلاع القرامطة للحجر الأسود إلى محاولتهم إبطال الحج وهدم الإسلام ، وإظهار عبادة النار ويرى آخرون أن الصراع كان سياسياً بحتاً ، وكان المقصود منه محاربة عقيدة أهل السنة .

فالكعبة لم تسلم إذن من التخريب والهدم والسلب والنهب ... وعبر التاريخ لم يبق فيها حجر على حجر . لم يبق فيها إلا مكانها .

فهى رمز

ولا يصح تقديسها إلا رمزاً
وشأنها شأن القرآن حينما يقول عنه الله :

﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾

فلا يكون المقصود هنا « المصحف وورقه » .. لأن المصحف وورقه مادة شأنها شأن كل المواد يجرى عليها العطب والفساد ..

فإذا جرى البلى والفساد على الورق لا يكون في ذلك مهانة للدين .

وإنما المراد هنا المعنى العميق .. « لا يمسه إلا المطهرون » .. أى لا يمس معاني القرآن ولا يفهم أسرارها إلا النفوس المطهرة من أهوائها .

وبالمثل تقوم الكعبة كرمز .. لا كحجارة .

والحج والطواف والذبح والرجم وعرفة رموز .

فإذا تجاوز تقديس البقعة إلى تقديس الحجر ، خرج المؤمن عن إيمانه وسقط إلى حضيض الشرك والوثنية ، وما هكذا مراد الله بالكعبة .

والذى يسأل لماذا يكون الطواف سبعة أشواط والرجم سبع حصوات .. نقول له ولماذا لا يكمل نحو الجنين إلا في الشهر السابع ؟ ولماذا يولد ميتاً إذا نزل قبل السابع ؟ ولماذا تكتمل النوتة الموسيقية بالدرجة السابعة فلا تكون النوتة الأعلى بعد ذلك إلا جواباً للنوتة الأولى ؟

إنه سر في بناء الكون المادى والروحى إنه سباعى التكوين ، وإن السبعة هى درجة الاستواء والتمام .

والنفس البشرية بالمثل سبع درجات . أسفلها النفس الأمارة ، ثم تليها النفس اللوامة ، ثم النفس الملهمة ، ثم النفس

وكان أمراً عجيباً أن يهدأ البحر وتقلع الرياح وتنتهي لعاصفة ، وينجوا وحده ومعه ذهابه بهذه الطريقة التي تبدو كالمعجزة .

وتدفع عينا الجدد ويومض بصره الكليل ، وكأنما يرى شريطاً سريعاً من اللقطات الرهيبة .. ويروى كيف قضى ليلتين في البحر ثم انتشله مركب شراعى آخر قاصداً إلى الحج .. وكيف أتم حجته السابعة ثم عاد بسلام .

ويروى كيف كان الموت يترصد الحاج في كل خطوة في البحر وفي البر وفي الصحارى .. وبين الحر المحرق والرمال والعطش إذا ضل طريقه أو ماتت راحلته .. وعلى أيدي قطاع الطرق إذا ألقى به سوء حفظه إلى عصبة من عصباتهم .. أو بمرض مديد في زمان لم يكن يعرف شيئاً اسمه طب وقائى أو يسمع عن لقاح للكوليرا أو التيفود .. وكانت الرحلة تطول إلى ستة شهور وسبعة شهور وسنة ، وكان الخارج إليها مفقوداً والعائد مولوداً .

وكان يختم قصته مبتسماً بفمه الخالى من الأسنان ..

وبرغم كل هذه الأحوال فقد حجبت سبع حججات وهأنذا أموت بينكم في الفراش كما يموت الكسالى من العجائز . لتعلموا يا أولادى أن كل شيء بأمر الله .. وأنه لا البحر يفرق ولا المرض يهلك ولا نار الصحارى تحرق ، وإنما هو الله وحده الذى يصرف الآجال كيف يشاء .

أذكر الآن قصة هذا الجدد الطيب وتطوف بذهنى تلك الصور وأنا أضع قدمى فى الطائرة لأصل جدة فى ساعتين ، وفى ساعة ثالثة أكون فى الحرم أطوف بالكعبة ثم فى الساعة التالية أكون صاعداً إلى عرفات ، وبعد غروب الشمس أكون نازلاً إلى منى لرمى الجمرات ثم طواف الإفاضة ثم تنتهى كل المناسك فى أمان .

وأذكر السرب الطويل من خمسين ألف عربة تحمل نصف مليون حاج وتصعد كلها فى وقت واحد فى عدة طرق دائرية حديثة الرصف .. وكل شيء يتم فى سرعة ونظام ودون حادث وقد تناثرت وحدات الكشافة لتنظيم المرور .. وعلى الجبل تراصت مستشفيات كاملة التجهيز لعلاج وعزل أى حالة اشتباه .. وطوال ساعات الليل والنهار تطوف الرشاشات لقتل الذباب والبعوض فى أماكن توالده . وتطوف فرق أخرى لجمع القمامة وحرقها .

وبين مكة والمدينة يمتد أوتوستراد أملس كالحرير تنزلق عليه العربات فى نعومة ، وينام الراكب فى حضن كرسيه فى استرخاء لذيد .

ما أبعد اليوم من الأمس .

وما أكثر ما نتقلب فيه من النعم .

وكلما أحاطتنا النعمة ازدادنا لله هجراناً .

أين إيمان اليوم .. من إيمان النبي العظيم منذ ألف وأربعمائة سنة وهو خارج في غزوة تبوك على رأس اثني عشر ألفاً من المسلمين في شهور القيظ ، المحرق ، ليخوض في رياح السموم والحرور القاتلة سبع ليال يتهدده العطش في كل خطوة - وقد ترك من خلفه الأمان والظل الظليل والراحة في خيام زوجاته .. ليلقى الله وليبلغ الرسالة .. وليحارب من 15 .. الروم .. الذين احتشدوا على الحدود بمئات الألوف .

واليوم ترتفع حرارة الجو بضع درجات فتدير جهاز التكييف وتغلق أبواب غرفنا لا تبرحها لأن الخروج إلى الشارع مجازفة غير مأمونة .

وما أبعد اليوم من الأمس حقاً .

وما أفدح ما خسرنا حينها خسرنا الإيمان .

كلمة التوحيد .. ماذا تعني

أكثر الذين عبدوا الله وزعموا أنهم يعبدونه واحدا جعلوا له شركاء .. أكثرهم فعلوا هذا من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون . أختاتون الذي بلغ القمة في التوحيد ، عاد فجعل من نفسه ابناً لهذا الإله فقال في نشيده مخاطباً ربه . إنك في قلبي . وليس هناك من يعرفك . غير ابنك الذي ولد من صلبك . ملك مصر العليا والسفلى . الذي يحيا في الحق . سيد الأرضين أختاتون .

لقد وقع برغم بصيرته الشفافة في هذا الإفك القديم وظن نفسه ابناً لله من صلبه ، وفي فارس تصوره الذين عبدوه إلهين اثنين .. (هرمز واهرمز) : « أحدهما إله للخير والآخر للشر » وفي الهند تصوره ثالوثاً « براهم وقشنو وشيفا » ومن تحت الثالوث عددوا كثرة من صغار الأرباب وصلت إلى ثلاثمائة

وثلاثين مليوناً من الآلهة ، بعدد ما ظنوا من حيوانات ودواب
ومخلوقات تحلّ فيها أرواح تلك الآلهة .

وفي اليونان عبدوا زيوس كبير الأرباب ثم جعلوا لهذا الكبير
غصاية من صغار الآلهة بعدد ما تصوروا من قوى الطبيعة .
وعبد اليهود الرب « يهوا » إلهاً واحداً ثم جعل بعضهم من
النبي عزرا ابناً له مخالفين بذلك ما علمهم موسى من وحدانية
الخالق .

وجاء عيسى بالتوحيد فاختلف من بعده الأتباع وجعلوا من
المسيح ابناً لله وجعلوا الحقيقة الإلهية الواحده ثالثاً .
ثم جاء الإسلام بختام الكلمة في التوحيد فآله أحد صمد
لا صاحبة له ولا ولد ، ليس له ند ولا ضد ولا مثل ولا شبهه ،
لا يتحيز في مكان ، ولا يتزمن بزمان ، ولا يتحدد في كم ،
ولا يتمثل في مقدار ، ولا يتقيد بإطار ، ولا تحيط به صورة ،
ولا يتجسد في جسد ، وهو ليس من هذا العالم ، بل هو فوقه
ومتعال عليه فهو في الإطلاق وهذا العالم في القيد ، وفي كلمة
بسيطة بليغة .. أحد .. أحد .. ليس كمثله شيء .

واعتقد المسلمون بهذا التوحيد بواقع الشهادة التي يقررونها
خمس مرات كل يوم وفي كل أذان ، إنه لا إله إلا الله .. وأن الله
أكبر من كل شيء مطلقاً .. ولكن الكثرة الغالبة منهم عادت
فوقعت في ألوان جديدة من الشرك الخفى ، وبات أكثر توحيد

المسلمين باللسان بأن الله أكبر .. على حين أن سلوك هذه الكثرة
ومشاعرها يقول إن الدنيا أكبر ، وتخصي المال أكبر وحياسة
القصور والضياع أكبر ، والفوز برضا امرأة أكبر والتقرب
للسلطة أكبر . وهوى النفس أكبر .

الكثرة تقول لا نعبد إلا الله ولا نخاف إلا الله ، ولكن
سلوكها يقول إنها تخاف الموت والفقر والمرض والميكروب
والفيروس والشيخوخة أكثر ، وكأنها قد أهملت الأشياء لها سلطة
الضرر بذواتها .

الكثرة تطلب الشفاء من يد الطبيب وتنتمسه في الدواء ويقع
الواحد في اليأس لأنه لم يجد الحقن المستوردة كذا أو المضاد
الحبوى كذا ، وينسى أن الله من وراء الأسباب ، وأنه هو الذى
أودع صفات الشفاء في هذا المضاد أو هذه الحقنة وأنه هو الذى
قدر البرء على يد هذا الجراح .. وأنه هو الذى خلق الفيروس
والميكروب والبكتيريا ، وأنه هو الذى نشرها وأرسلها وأنه هو
الذى أقام حواجز المناعة في أجسامنا ، وأنه إن شاء هدم هذه
المناعة ، وإن شاء أعانها وأنه خالق نحر والبرد والصقيع ، وأنه
هو الذى وضع خاصية التغذية في الغذاء وخاصية الإرواء في
الماء ، وخاصية القتل في السم ، وخاصية النفع في الترياق .
لا شيء له سلطة النفع بذاته ، ولا شيء له سلطة الضرر
بذاته .

وإنما الله هو الضار النافع وما عدا ذلك أسباب أقامها الله لتعمل بمشيئته . والتوحيد الصحيح أن نخافه هو ، لأنه لا شيء يستطيع أن يضرنا بدون مشيئته ، وأن نطمع فيه وحده لأنه لا شيء يستطيع أن ينفعنا بدون إذنه إنه وحده الذى يعمل طوال الوقت بالرغم من كثرة الأيدي التى تبدو فى الصورة .. ألم يقل للمقاتلين فى بدر :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .
(١٧ - الأنفال)
مع أن الظاهر أنهم هم الذين قتلوا المشركين .. وأن النبى عليه الصلاة والسلام هو الذى رمى . هذا هو الظاهر .

ولكن الحقيقة أنها أدوار اختار الله أبطلها منذ الأزل .. اختار للنشر نفوسا علم أنها تحب الشر وعرف أنها لا تصلح إلا للشر بحكم ما أخفته فى سرها .. ولهذا اختار إبليس للغواية .. لأنه علم فيه الكبر .. واختار محمداً عليه الصلاة والسلام للهداية لما علم فيه من مودة ورحمة .. وهكذا وزع الأدوار بحكم استحقاقات علمها أزلا .. ثم أعان كل واحد على ما يصلح له .. أعان المضل على الضلال وأعان الهادى على الهدى .
﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾ .
(٢٠ - الإسراء)

فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ،
وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴿ .
(٥ - ١٠ الليل)

من طلب المعونة على جريمة أعانته عليها وعليه وزر اختياره . ومن طلب المعونة على خير أعانته عليه وله ثواب اختياره . وإنما دور كل منا هو توجيه طاقته .

ولكن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الطاقة الكلية ولا يمكن إنفاذ فعل بدونه فهو الوكيل القائم على إنفاذ جميع الأفعال ، وهو اليد الفاعلة وإنما دور القاتل أنه أضمر القتل واختاره وفكر فيه وعزم عليه وهذا هو إسهامه الذى سيحاسب عليه .. أما إنفاذ جميع الأفعال فإله منفرد به .. ولهذا قال لمحاربى بدر :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ . (١٧ الأنفال)
وهذا هو المعنى الحقيقى للتوحيد أن الله هو الفاعل الوحيد .. وأنه إذا كانت لنا أعمال فهى سرائرنا ونياتنا وما نعزم عليه وما توجه إليه طاقاتنا وما نبادر إليه ، لهذا قال الله عن نفسه إنه يضل من يشاء ويهذى من يشاء .

﴿ ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ . (٢٣ - الرعد)
﴿ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ .
(١٤٣ - النساء)

ولكنه شاء سبحانه وتعالى أن يطمئتنا فقال :

﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ . (٢٧ - إبراهيم)

﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ .

(٣٤ - غافر)

﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ . (٧٤ - غافر)

فجعل الفعل الإلهي قائماً على استحقاق . وهذا يجعل من الدنيا كلها تحصيل حاصل لاستحقاقات أزلية استحققتها نفوس الخلائق بحكم منازلها التي تفاضلت بها أزلاً .. وإنما أراد الله أن نخرج ما نكتم في قلوبنا فخلق هذه الدنيا ليشهد كل منا على نفسه :

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ . (٧٢ - البقرة)

﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ . (٦٤ - التوبة)

وهذا يعني أن هذه الدنيا هي الفصل الثاني من رواية . وإنه كان هناك فصل أول سابق عشناه ولا نذكر عنه شيئاً .. وإنما بحكم ما قدمنا في هذا الفصل السالف استحققنا ما نجد الآن من خير وشر .. وأن ما يجد كل منا في حياته هو أشبه بكشف النقاب عما يكتم وعما يخفى في ذات نفسه .

والله يعلم حقيقتنا من القدم ، ويعلم عنا كل شيء ، ولكنه أراد لنا أن نعلم عن أنفسنا بعض ما يعلم فخلق لنا الدنيا لنرى أنفسنا في أعمالنا .

وليس هذا قولاً بتناسخ ، فأنا لا أومن بالتناسخ الذي يتكلم

عنه الهنود ، ولا في تقمص الأرواح الذي يعتقد فيه الدروز .. ولا أظن أن الفصل الأول من الرواية كان على هذه الأرض ولا أنه كان تقمصاً سابقاً لحياة بشرية .. إنما هو أمر من أمور الغيب لا يعلمه إلا الله ، وهو ماض محجوب لن يهتك عنه الستار إلا يوم يبعث الله من في القبور ويحصل ما في الصدور . يومئذ تتكشف الأسرار ويعرف المجرمون أنفسهم على حقيقتها فيقولون معترفين :

﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ . (١١ - غافر)

ولا خروج .. فهل يستطيع أن يخرج إنسان من نفسه أو يتبرأ إنسان من يديه « هيهات »

ويسأل سائل .. لمن الملك اليوم ؟

وتجيب السماوات والأرض وتجيب الملائكة وكل الخلق .. لله الواحد القهار ، وهو أمر ليس بجديد .. فالملك كان لله دائماً في ذلك اليوم وفي كل يوم .. ولكن الظاهر في الدنيا كان يخدع من يراه .. كان يبدو أن لبعض الناس مُلكاً ، وكان يبدو أن الطبيب يشفي وأن السلطان يرزق ، وأن السم يميت وأن الرصاصة تقتل ، وأن هذا ينفع وأن ذاك يضر ، وأن هناك جبارين غير الله يحكمون .

ونسينا ما وصف الله به نفسه في القرآن الكريم بأنه :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ .

(٢ - الحديد)

فإن كان الطبيب يشفى ، والسلطان يرزق ، والسم يميت ، والرصاصة تقتل ، فإن الله هو الظاهر في كل هذه المظاهر وهو الفعل الخالص فيها .. وما يجري على جميع الأيدي هو الوجه المنظور للمشئنة في تلك اللحظة .. سبحانه .. كل يوم هو في شأن .. وتلك شئونه ..

وإذا كنا رأينا جبارين من غير الله يحكمون فما حكموا في الحقيقة إلا به .. وإنما تجلى حكم الاسم الجبار على نفوسهم لأن تلك النفوس لم تكن لتقبل بحكم استعدادها الأزلى إلا هذا اللون من التجلى .. لم تكن تصلح لأن يتجلى عليها الرحيم ولا الودود ولا الرؤوف .. ولم تكن لتقبل التجليات الجمالية لأسماء الحليم والكريم والحنان والمنان واللطيف ..

فنحن مازلنا مع الله لم يظهر فينا غيره .. هو الظاهر بأسمائه وأفعاله في كل شيء .. ولكن من وراء ستار الأسباب ومن خلف نقاب الكثرة .

وبرغم هذه الكثرة فإنه لا إله إلا الله .. لا فعال سواء ، لا شاف ولا رازق ولا نافع ولا ضار ولا محيي ولا مميت ، لا جبار ولا مهيمن غيره .. إنها ذاته الواحدة الفاعلة أبداً ، زلاً .

ألا تبدو الطاقة الكهربائية في كل مصباح بشكل مختلف حسب نوع الفتيل المعدني داخله .
ألا تبدو الكهرباء في مصابيح النيون بألوان وتألقات متفاوتة حسب نوع الغازات في تلك الأنابيب المفرغة .
ما أشبهها جميعاً بنفوسنا التي تختلف استعداداتها فتختلف أفعالها مع أن الفاعل فيها واحد ..
مجرد مثال .

والدنيا كلها مثال رامن للقدرة قدرة الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء وإذا رأيت هذا الواحد من وراء الكثرة وإذا أنت لم تعباً بهذه الكثرة وشعرت بنفسك تتعامل طول الوقت وجهاً لوجه مع الله فلم تر شافياً لك غيره برغم تعاطيك الدواء واستسلامك لمبضع الجراح ، وإذا رأيت هو الذي يطعمك ويسقيك وشعرت بنفسك تأكل من يده وتشرب من يده برغم كثرة المشارب والمطاعم التي تتردد عليها ، وإذا نسيت نفسك ولم تر غيره فأنت المسلم الموحد على وجه التحقيق .

وإنما يأتي فساد الأعمال من تصور الواحد منا أنه يأتيها وحده .. كما تصور قارون أنه صاحب العلم وصاحب العمل وصاحب الفضل وقال مختالاً وهو يتحدث عن ماله وجهه :
﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ . (٧٨ - القصص)
فلم ير غير نفسه ولم يشهد غير علمه الذاتي ونسى أنه

لا يملك علماً ذاتياً ولا قدرة ذاتية ، وإنما قدرته وعلمه وذكاءه كانت كلها هبات سيده وهذا هو الشرك الخفى .. حينما يصبح إله الواحد نفسه وهواه وملكاته .

﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه ﴾ . (٢٣ - المجانية)
ولهذا يتبرأ العارفون عن أعمالهم الصالحة ويسندونها إلى الله وتوفيقه .

وأكثر من هذا يتبرأ الواحد من إرادته الخيرة ومن نياته الطيبة ويرى أنها من أفضال سيده .. ثم يتبرأ من نفسه التى بين جنبيه .. وينسى ذاته .. ويشهد أنه لا يملك من نفسه إلا العدم وأن كل ماله من الله .. ولا يعود يختار .. وإنما يشهد الله يختار له فى كل لحظة .. ثم لا يعود يشهد إلا الله فى كل شيء . فذلك هو التوحيد الكامل .. وهذه هى لا إله إلا الله حينما تصبح حياة .

ونرى دعاء ، أبى الحسن الشاذلى فى هذه الحالة من الوجد :
رب خذنى إليك منى ، وارزقنى الفناء عنى ، ولا تجعلنى مفتوناً بنفسى ، محجوباً بحسى . ونقرأ فى المواقف والمخاطبات للنفرى ما يقوله الله لعبده العارف « ألق الاختيار ألق المساءلة البتة » ..

فتواب مثل هذا التوحيد الكامل الذى يلقي فيه العبد اختياره ويأخذ باختيار الله فى كل شيء .. هو المغفرة الكاملة

وعدم المحاسبة . يقول الله فى حديثه القدسى إلى المذنب :
لو جئتني بملء قراب الأرض خطايا ولقيتني لا تشرك بي شيئاً لوجدت عندى ملء قراب الأرض مغفرة .

فتلك ثمرة التوحيد ، وهذا ثواب كلمة لا إله إلا الله ، إذا جعلها الواحد منا حياته وسلوكه ومنهجه ونبضه وتنفسه وذوب قلبه . وهذا ما أراده القرآن الكريم بإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى . وهذا ما أراده رسولنا العظيم محمد عليه الصلاة والسلام ، حينما سأله أحدهم أن يوجز له الدين الذى تلقاه عن ربه فى كلمتين .. فقال كلمته الجامعة : « قل لا إله إلا الله ثم استقم » ..

وهذه هى الملة الحنيفية ملة أبينا إبراهيم الذى لم يعرف لنفسه إلهاً ولا خالقاً ولا رازقاً ولا شافئاً ولا منقذاً إلا الله .. والذى ألقى به فى النار وظهر له جبريل يسأله حاجته .. فقال له النبى العارف الموحد . أما لك فلا ..

إنه فى ساعة الخوف والهول والفرع لا يسأل أحداً إلا ربه .. لأنه لا يرى أحداً يملك له شيئاً حتى ولو كان كبير الملائكة . الروح القدس نفسه .. فلا فاعل فى الكون إلا الله .. ولا يملك أحد أن ينفع أو يضر إلا بإذنه

وتلك مرتبة عرفانية لا يصل إليها إلا نبى .
وهذا معنى التوحيد .

أليست هذه أسماؤه ... ؟ !
وهل نحب حينما نحب إلا أسماؤه الحسنى حيثما تحققت وبنينا
تحققت .
وهي نحب حينما نحب إلا حضرته الإلهية في كل صورة من
صورها .

والحكيم العارف من أدرك هذه الحقيقة فاتجه بحبه إلى
الأصل .. إلى ربه ولم يلتفت إلى الوسائط ولم يدع بهرج الألوان
يعطله .. ولم يقف عند الأشخاص .. فهو من أهل الغزائم
لا تعلق له إلا بربه .. لقد وفر على نفسه خيبة الأمل وانقطاع
الرجاء وخداع الألوان .

لقد أحب من لا يهجر ، وعشق من لا يفتر ، وتعلق بمن
لا يفيب ، وارتبط بمن لا يموت ، وصاحب من بيده الأمر كله
وساهم في البنك المركزي الذي يخرج منه النقد جميعه .. وهام
بالودود حقا ذاتا وصفاتا وأفعالا .
وذلك هو مذهب العارفين في الحب .

فهل عرفت ...
وإذا كنت عرفت .. فهى أنت بمستطيع .
وليس كل عارف بمستطيع .

ومذهب العارفين ليس بمجرد معرفة .. ولكنه همة واقتدار وكدح
ومغالية .. والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن

الحب

الحب والهوى والغرام خداع ألوان ، مانراه في المحبوبة منلها
نراه في قوس قزح ، جمال ألوان قوس قزح ليس من قوس قزح
نفسه ولكنه من فعل نور الشمس على رذاذ المطر المعلق في
الهواء ... فإذا غابت الشمس وجف المطر اختفت الألوان وذهب
الجمال .

وهكذا محبوبتك جماها فيما يتجلى عليها من خالفها .. فإذا
انقطع عنها التجلى شاخت ومرضت وذبلت وعادت قبحا
لا جاذبية فيه .. إن ما كانت تملكه من جمال لم تكن ملكا لها
بالأصالة ، بل كان قرصا وسلفة .

حتى السجيا الخلرة والنفوس العذبة والخلال الكريمة هي
بعض ما يتجلى فيها من أسماء خالقنا الكريم الخليم الودود
الرءوف الغفور الرحيم ..

تعلق إلا بما تشهد بصرًا وسمعًا وحواسًا .

أما تعلق الفؤاد بالذي ليس كمثلته شيء فمرتبة عليا لا يوصل إليها إلا بالكدح والكفاح والهمة .. وقبل ذلك كله .. بالتوفيق والرضا من صاحب الأمر كله ..

ولهذا أدرك العارفون أن هذا أمر لا يمكن الوصول إليه إلا ركوعًا وسجودًا وابتهالاً وعبادة وطاءة وخضوعًا وخشوعًا وتذللًا وتجردًا وإن هذه مرتبة لا تنال بشهادة جامعية ولا بماجستير أو دكتوراه ، أو تحصيل عقلى .. ولكنها منزلة رفيعة لا مدخل إليها إلا بالإخلاص وسلامة القلب وطهارة اليد والقدم والعين والأذن ولا سبيل إليها إلا بخلع النعلين .

تخلع جسدك ونفسك ..

وليس مقصود القوم هنا هو الزهد الفارغ والتبطل .. وإنما أن تخلع حظك وأنانيتك وشهوتك وطمعك وشخصانيتك ، وأن ترتد إلى الطهارة الأولى اللاشخصانية التي تعنى فيها وتحب دون نظر إلى حظ شخصى أو عائد ذاتى .. فهى حالة عمل وعطاء وبذل ولبست حالة زهد فارغ وتبطل .. وهى فى ذروتها حالة فداء وتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الله .. تضحية لا تنظر إلى نیشان أو نصب تذكارى .. ولكنها تبذل المال والدم والنفس لوجه الله وحده .

ويقول العارفون إن عبارة الاستشهاد هى أعلى موائد التكريم

ولا دخول إليها إلا ببطاقة دعوة من صاحبها . ولا دخول إليها اقتحامًا أو قهرًا وتبجحًا .. وإنما هى دعوة من الكريم يتلقاها صاحب الحظ بالتلبية والهرولة ويتلقاها المحروم بالتكاسل والتخاذل .. والتخلف ..

ذلك هو الحب فى مذهب القوم ، وهو غير الحب فى مذهب منتجى أفلام السينما ومؤلفى الرومانتيكيات ، وهو أيضًا غير الحب عند الكثرة الغالبة من الناس .. حيث الحب هوى ونار وشهوة وجريمة وصدور عارية ومجوهرات . ولحظت تتألق بالشعر ثم ما تلبث أن تحبو وتنطفئ وترتك رمادا من الأكاذيب .

- ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . (٢١ - يوسف)
- ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ . (٦٣ - العنكبوت)
- ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ . (١١٦ - الأنعام)
- ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ﴾ . (٣٦ - يونس)
- ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ . (٢٣ - النجم)

﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾ . (٤٤ - الفرقان)

هكذا يعلمنا القرآن أن الكثرة لا تعرف أما العارفون فقليل ما هم ولكن الصحابة التى نغاطب الكثرة والسينا التى تتعلق الجماهير والمؤلفين الذين يطمعون فى الروج والشعراء الذين

يتبعهم الغاؤون يتغنون بألوان أخرى من الحب . ويشبهون معا في
أودية الغفلة التي تنتهي بنا إلى جنون قيس وانتحار جوليت
وسقوط راهب تاييس ومبادل فالتينو وجرائم آل كابوني وموائد
مونت كارلو .

والمنتجون عندنا أكثر تواضعا فهم يكتفون بكباريات شارع
الهرم .

وهو أمر قديم قدم التاريخ منذ أيام بابل ، ومنذ أيام أنطونيو
وكليوباتره ومنذ أيام الفراعنة والإغريق والرومان .. ونقرأ في
كتاب الموق هذه السطور التي كتبها الحكيم المصري منذ خمسة
آلاف عام .

لا تنظر إلى امرأة جارك فقد انحرف ألف رجل عن جادة
الصواب بسبب ذلك .. إنها لحظة قصيرة كاللحم والندم يتبعها .
إنها معارف قديمة منذ أيام آدم .. وقصة بائنة منذ مقتل
هابيل .

ولكن لا أحد يذكر ... ولا أحد يعتبر .. ولا أحد يتعلم من
الدرس .

وأكثر الذين يعرفون لا تنفعهم معرفتهم بسبب ضعف الهمم
وتخاذل الأنفس وغلبة الشهوات .

إن السلام إلى الأدوار العليا موجودة طول الوقت ، ولكن

لا أحد يكلف نفسه بصعود الدرج والأغلبية تعيش وتموت في
البدروم ...

ولو كلف أحد منهم نفسه بالصعود .. وتحمل مشقة الصعود
وشاهد المنظر من فوق ، لبكى ندما على عمر عاشه في البدروم
بين لذات لا تساوي شيئا ولكنه الضعف الذي ينخر في الأبدان .
والبشرية تسير من الضعيف إلى الأضعف ، والأجيال الجديدة
أكثر ضعفا وأكثر تهاوتا على العاجل البائد من اللذات ، واقرأ
المقال من أوله واسأل نفسك .. من أي مرتبة من البشر أنت ..
هل أنت عارف .. وإذا كنت عارفا .. فهل أنت بمستطيع .
وابك ماشنت من اليكاه فلا شيء يستحق أن تبكيه ..
لا ففرك ولا فشلك ولا تخلفك ولا مرضك .. فكل هذا يمكن
تداركه أما الخطيئة التي نستحق أن تبكيها فهي خطيئة البعد عن
إلهك ..

فإن ضيعت إلهك .. فلا شيء سوف يعوضك .
وكل أحلام الشعراء لن تغنيك شيئا .

ووقعت المرأة في الفخ .. وخلعت ثوب حياتها .. وعرضت
جسمها سلعة تنهشها العيون .
وقالوا لها البيت سجن ، وإرضاع الأطفال تخلف ، وطهى
الطعام بدائية .. مكانك إلى جوار زوجك في المصنع وفي الأتوبيس
وفي الشارع .

وخرجت المرأة من البيت لتباشر ما تصلح له وما لا تصلح
له من أعمال .. وألقت بأطفالها إلى الشغالة .. وقالوا لها جسمك
ملكك أنت حرة فيه بلا حسيب وبلا رقيب وليس لك إلا حياة
واحدة وكل يوم يمضى من أيامك لن يعود .. عيشى حياتك
بالطول وبالعرض .. أنفقى شبابك قبل أن ينفد ، واستشعري
أنوثتك قبل أن تشيخ ولا تعود لها سوق .. وساهم الفن بدوره
ليروج هذا المفهوم .. ساهمت السينما والمسرح والإذاعة والأغنية
والرقصة والقصيدة .. ودخلت الغواية إلى البيوت من كل باب
وتسربت إلى العقول ، وتغللت الجلد وأشعلت الخيال بسمار
الشهوات ، وأمراض القلوب بداء الخيانة .. وأصبحت المثل
العليا في المجتمع هي أمثال مارلين مونرو وكلوديا كرينالى ولولو
بريجيدا .

وأصبحت البطلات صاحبات المجد عندنا أمثال شفيقة
القبطية وبمبة كشر ومنيرة المهدي .
وأصبحت القدوة هي زوجة هربت من بيت الزوجية .

المرأة ..

نظرة على الشارع وعلى فاترينة الأزياء ومجلات الموضة
وصالونات الكوافير وإعلانات الروج والمانيكير وأنواع
الباروكات ، سوف نشعرنا بمدى الجناية التي جنتها الحضارة
المادية العصرية على عقلية المرأة . ومن الوهلة الأولى سوف نفهم
أن هذه الحضارة لم تر في المرأة إلا دمية أو لعبة أو متعة ،
لإثارة الرغبة والشهوة وإشعال الخيال .. حتى أساء العطور .
عطر « سكاندال » بمعنى فضيحة .

هكذا أرادوا بالمرأة حينما صمموا لها الفساتين ورسوموا لها
الفتحات على الصدر والظهر ، وحينما حرقوا لها البنطلونات
وخشقوا البلوزات .. واستدرجوا المرأة من غرورها حينما قالوا
لها .. ما أجمل صدرك .. ما أجمل كتفيك .. ما أروع ساقيك ..
ما أكثر جاذبيتك حينما يكون كل هذا عارياً .

وظنت المرأة بنفسها الشطارة والفهلوة فظنت أنها تقدمت على أمها وجدتها حينما اختارت لنفسها هذه المسالك .. والحقيقة أنها استدرجت من حيث لا تدري ، وكانت ضحية الإيجاء والاستهواء وبريق الألفاظ ، وخداع الفن وأجهزة الإعلام ، والرأى العام الموجه الذى تصنعه حضارة مادية وثنية لا تؤمن إلا باللحظة ، ولا تعترف إلا بلذات الحس .. الصنم المعبود لكل إنسان فيها هو نفسه وهواه .. والمحراب هو فاترينة البضائع الاستهلاكية ، والهدف الذى من أجله يلهث هو إشباع الحاجات المأجلة ..

نرى كيف كانت نظرة الإسلام للمرأة .. الإسلام المتهم بالجمية والتخلف والهداوة .. الإسلام الذى قالوا عنه إنه أفيون الشعوب ..

لم ينظر الإسلام للمرأة على أنها دمية أو لعبة أو متاع ، بل على أنها أم ورأى فيها شريكة عمر لا شريكة ليلة .. عنها القرآن الكريم إنها السكن والمودة والرحمة وقرّة العين ... واختار لها البيت والحجاب والرجل الواحد تعظيماً وحفاظاً عليها ..

وكانت خديجة لمحمد عليه الصلاة والسلام أكثر من مجرد امرأة لقمة أو شريكة فراش ، فقد شاركته الدعوة والرسالة .

واحتضنت هموم النبوة .. وكانت الناصح والصديق والأم الرءوم والسند المعين ..

واشتغلت المرأة بالتمريض ، وصاحب النساء أزواجهن فى الغزوات .. وجلست المرأة للفقه .. وجلست لتلقى العلم .. وأنشدت الخنساء الشعر بين يدي النبی عليه الصلاة والسلام .. وكان يستزیدها قائلاً هیه یاخناس ..

ولم يبيح الإسلام التعدد إلا للضرورة وبشرط العدل .. وما أباح التعدد إلا إثارة لأن تكون المرأة زوجة ثانية بدلاً من أن تكون عشيقة وهذا أكرم ..

ثم جعل القاعدة العامة فى الزواج هى الزوجة الواحدة لأن العدل بين النساء أمر لا يستطيعه الرجال ..

وقد عهد الإسلام إلى الرجل بأن يبني ويعمر ويفتح الأمصار ويتاجر . ولكنه عهد إلى المرأة بما هو أشرف من كل هذا بحضانة الإنسان وتربيته .

إن الرجل له أن يصنع أى شئ ولكن المرأة وحدها هى التى سوف تصنع الرجال .. وهذا غاية التكريم وغاية الثقة هل هذا هو التخلف .. أم أن التخلف الحقيقى هو أن تسير المرأة نصف عارية حلمها إثارة رجل وغايتها متاع ليلة ، ومثلها الأعلى امرأة هلوك يقتل حولها السكرارى مثل الراحلة بيمية كشر .. كم خدعوك يا أخت ..

وكم استدرجوك إلى حتفك .. وخلعوك من عرشك وانتزعوك
من خدرك .. وباعوك في أسواق النخاسة رقيقاً تثنى بقدر
ما فيها من لحم
وأنت نصف الأمة .

ثم إنك تلدين لنا النصف الآخر .. فأنت أمة بأسرها ..
ولا يستطيع الرجل أن يقود التطور وحده .
ترى هل أن الأوان لتعيدى النظر .. ترى هل أن الأوان
لتعرفى قدرك وتعرفى دورك .

احترام الجسد

مأساة الإنسان أنه لا يوجد تواز بين نفسه وجسمه ، فالحادثة
التي تقطع ساقه لا تقطع رغبته في الجرى ، والجراحة التي
تستأصل غدته التناسلية لا تستأصل رغبته الجنسية .. وحينما
يضعف بصره بالشيخوخة لا تضعف رغبته في الرؤية ، وعندما
يضعف سمعه لا يزهد في الطرب وحينما يضعف بدنه لا تموت
شهوته .. وإنما العكس .. نسفت الأسنان وتزداد الرغبة في
المضغ .. وتبدأ المهزلة .

ومن لم يؤدب شبابه لن يستطيع أن يؤدب شيخوخته . ومن لم
يتمرس على كبح نفسه صبيّاً لن يقدر على ذلك كهلاً .. وسوف
تتحول لذته فتصبح عين مهانته إذا طال به الأجل .. ولهذا نرى
أقاربه يطيل آجال بعض المسرفين ليكونوا مهزلة عصورهم ،
وليصبحوا حكاية ونكتة تنذر بها الأجيال للاعتبار .. حينما

ينحول الفجار والفساق العتاة فيصبح الواحد منهم طفلاً يتبول على نفسه وكسيحاً يحبو ومعوقاً يفأق ويتهته ، وتسقط أسنانه التي سبق أن نبتت بالآلم فينخرها السوس لتقع مرة أخرى بالآلم ، ونعود أطرافه التي درجت على مشاية فتدرج على عكازين وينحول الوجيه الذي كان مقصوداً من الكل إلى عالة وشيئاً ثقيلاً وكومة من القمامة يتهرب منها الكل .. ثم لا يعود يزوره أحد .. ثم يموت فلا يشيعه مخلوق .. ولا تبكيه عين .. ولا تفتقده أذن .. ولا يذكره إنسان .. وكأنه دابة نفقت في حفرة .. فذلك هو التنكيس .. الذي ذكره القرآن .
 ﴿ ومن نعلمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون ﴾ .

(٦٨ يس) .

والسر في هذه المأساة .. أن النفس لا تشيخ ولا تهرم .. ولا تجري عليها طوارئ الزمان التي تجري على الجسد .. فهي من جوهر آخر غير مادة الجسد الكثيفة المركبة التي يطرأ عليها التحلل والفساد .

فالسائق ما يزال محتفظاً بجميع لياقاته وسيظل شاباً على الدوام وإن كانت العربية الشيفروليه الفاخرة قد صدئت آلاتها وأصعبها التلف وعجزت عن الحركة .. ولم تعد للسائق حيلة سوى أن يسحبها .. وتلك هي حادثة الشيخوخة .. نفس مازالت بكامل رغباتها وشهواتها .. ولكن لا حيلة لها مع جسد مشلول لم

٧١

يعد يطاوعها .. لا حيلة لها سوى أن تسحبه وتجره على كرسي متحرك .

يقول أهل الله في شطحاتهم الصوفية الجميلة : إزالة التعلقات بعد فناء الآلات من المحالات .

فهم قد فهموا شيئاً أكثر من مجرد أن الأجسام آلات لتنفيذ رغبات النفس ، بل هي أشبه بالسلاسل يمكن أن يستخدمها صاحبها في الصعود أو في الهبوط - فالمعدة عضو أكل ولكنها أيضاً عضو صيام إذا تسلقت عليها .. وبالمثل الجهاز التناسلي عضو جماع ، ولكنه أيضاً عضو عفة إذا حكمته .. بل إنه لا معنى للعفة بدون وجود نزوع شهواني للأعضاء تقابله بضبط إرادى من ناحية عقلك .

وتلك هي الفرصة التي أسموها .. إزالة التعلقات . وسوف تضع هذه الفرصة بالشيخوخة وانتهاء الأجل .. فلا أمل في إزالة التعلقات بعد فناء الآلات فذلك من المحالات . وبذلك فهموا علاقة النفس بالجسد فهماً جديلاً .. فالنفس تؤدب الجسد ، ولكن الجسد أيضاً يؤدب النفس .. وعملية الردع عملية متبادلة بين الاثنين .

الفرامل المادية مطلوبة لتربية القرامل السلوكية والعكس صحيح .. والأجل المحدود .. يمكن أن يكون عملية إنفاق وتبديد . أو عملية بناء وتشيد .. وبناء الشخصية النفسية

وتعديلها والارتقاء بها أو الانحطاط بها محتاج إلى الأسمنت
الجسدى والحرسانة المسلحة من الخلايا .. الروح محتاجة إلى
الطين .. والطين محتاج للروح .

والنمو النفسى والروحى والتقدم المعنوى والتطهر الخلقى
محتاج لهيكل مادى يعرج عليه صعودا .

وهذا المعنى ينظر الصوفيون إلى الجسد بتقديس واحترام -
ولا يحتقرونه - فهو عندهم محراب النفس .

فالنور فى النهاية يخرج من سلك متوهج .

ونور الشمس يخرج من اندماج ذرات الهيدروجين .

ونور الغاز يخرج من احتراق الزيت .

ونور فضائلنا يخرج من احتراق أجسادنا .

فالجسم قنديل يمكن أن يشع فضيلة .

والنظر إلى الجسد باعتباره نجس وخطيئة نظرة غير إسلامية

بل هو أمر مناف للإسلام .. فالإسلام شولى وجدلى ينظر إلى

الإنسان باعتباره جسد ونفس وروح معاً .. بل إن الإنسان هو

تفاعل الثلاثة معاً فى وقت واحد .. وجسد الإنسان يمكن أن

يكون هو عين روحه فى لحظة .. كما أن روحه يمكن أن تكون عين

جسده فى لحظة أخرى والمسألة تتوقف على النفس هل هى

صاعدة على سلم الهيكل أو هابطة عليه .

والجسد عند الصوفية هو مجرد رسم مظلّم للروح ورمز رامز

لأسرارها .. وهو معراجها الذى تصعد عليه للحضرة الإلهية .

وفى حوار شعرى رقيق بين الروح والجسد ، يقول الصوفى

أبو العزائم على لسان الروح مخاطباً الجسد :

أيا رسم من سفلى تصاغ وترتقى

فبين بحال أو صريح كلام

فيجيبه جسده قائلاً :

لولاى ما جاهدت فى الله مخلصاً

ولولاى ما شرفت بالإكرام

فلولا ظلام الليل لم يعرف الضياء

وهو كلام دقيق وعميق ، فلولا المرض لم تعرف الصحة ولولا

السواد لم يعرف البياض . وكل شىء لا يجلوه إلا نقيضه

وبأضدادها تعرف الأشياء .

والجسم والروح كاللوح والقلم وكالمرآة والوجه وكالشمس

ونورها .

وفى أسرار الروح لا ينتهى الكلام .

يتقاضى عمولة قد تصل إلى عشرات الملايين كما فعل الياباني
ناناكا في صفقة طائرات لوكهيد لا يدخل تحت طائلة الحد .
ومعنى ذلك أن أخطر مفهوم للسرقة في عالمنا العصري سوف
يخرج من نطاق الحد ومن نص الشريعة ، وسوف يجد اللصوص
الكبار ثغرة واسعة يهربون منها بسرقاتهم ولن يقع إلا اللصوص
الصغار ونشالو الأنوبيس .

وفد أحسن الزميل أحمد يهجت حينها وصف الشريعة بأنها
رحمة ووقاية وصيانة ودفاع عن الضعفاء من بطش الأقوياء ، وأن
الحدود ليست إلا السياج من الأسلاك الشائكة المضروب حول
هذه الخيمة من الرحمة ، وأن الإسلام لم يأت ليزيد في عدد
أصحاب العاهات وأنه لا بد من التدرج ، ولا بد من الانتقال
بالمجتمع أولا إلى حالة من الكفاية والعدل ، ولا بد من تيسير
الزواج وتسهيل العفة وإيقاف هذا السيل انعادم من الغواية
والإثارة الشهوانية التي تقوم بها الأفلام السينمائية قديمها
وحديثها وهذا لعري في الصورة والأغنية والكلمة قبل أن نطالب
شبابنا بالعفة والفضيلة .. لا بد من إصلاح المناخ الاجتماعي
والإعلامي والفني وقطع دابر الاستغلال الاقتصادي بأنواعه قبل
أن تأخذ الدس بالشدة وبالعقاب الغليظ .
إن عمر بن الخطاب لم يقطع يدا في عدم المجاعة ، والنبي عليه
الصلاة والسلام لم يقطع يدا في الحرب وكلاهما كان يطبق

الشريعة متى .. وكيف

الشريعة أصبحت مطلباً شعبياً وأصبحت موضوعاً للمزايدة
بين الأحزاب وأصبحت ورقة انتخابية ، وكل هذا طيب وجميل ..
إن الكل يريد أن يعود إلى الله ، والكل يتسابق إلى المنهج
الإلهي .. هذا حسن .. ولكن البعض يشعر بالإشفاق .. وهناك
أقلام كثيرة تطالب بالوضوح .. وعندها حق .. فقد اختلف
العصر واختلفت أنواع السرقات ويخشى البعض أن تقطع اليد
التي تسرق عشرة جنيهات ، وتعفى اليد التي تختلس الملايون جنيه
لأن اجتهاد الفقهاء أعفى الاختلاس من الحد باعتباره لا يدخل
تحت النص الحرفي لكلمة سرقة كما أن السرقة من مال عام
أعفيت هي الأخرى من الحد لوجود شبهة الظلم في المال
الحكومي العام مما يجعل لمن يسرقه شبهة حق فيه .. وبالتالي
لا يدخل التزيف والتزوير والرشوة .. كما أن الموظف الذي

الشرعية ، لأن كليهما فهم الشريعة بمعناها الحقيقي إنها رحمة ..
لقد اجتهد الاثنان في فهم الشريعة وفي فهم ظروف تطبيقها ..
ومطلوب من فقهاءنا أن يجتهدوا وأن يحاولوا أن يتفهموا الظروف
الجديدة والأشكال الجديدة الخطيرة للسرقة في عصرنا .

إننا نعيش بالفعل في عصر تاناكا .. وأخطر أنواع السرقة
هي الرشوة والعمولة والاختلاس ونهب المال العام ، فإذا أخرجنا
هذه الجرائم من عقوبة الحد اتباعاً منا للسلف وتقليداً للمفهوم
السلفي في تفسير كلمة سرقة ، فإنه يكون تقليداً عن عمية
واتباعاً عن جهل ، وذلك لاختلاف نوعيات الجرائم واختلاف
الظروف في العصرين .

ولو أننا أطلقنا تلك الأفلام الجنسية المسعورة على شبابنا
وكلها أفلام تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف ، وتحض على الزنا
جهاًراً نهاراً ، ثم أشهرنا حد الرجم فوق الرقاب لظلمنا
وما عدلنا ، ولا يمكن أن نحول مجتمعاً داعراً إلى مجتمع فاضل في
يوم وليلة بمرسوم وزاري ولا يمكن أن نحول الهبوط الفني إلى
سمو فني في لحظة بقانون ولا أن نقلب البرامج الخفيفة إلى برامج
دسمة جادة في طرفة عين .. وإنما لابد من التدرج .

وفي الفقه شيء يسمونه شيوع البلوى .. إن البلوى إذا
شاعت وعمت فإنها تكون مدعاة للاستثناء ومدعاة إلى الإصلاح
المتدرج .

وقديماً كان شرب الخمر بلوى عامة وشائعة في المجتمع
القرشي . ولهذا نرى أن الآيات التي نزلت بالتحريم نزلت
متدرجة .. في البداية نزلت آيات تقول إن للخمر قوام وإن لها
مضار وأن ضررها أكبر من نفعها .. ثم نزلت الآيات التي تحرم
شرب الخمر وقت الصلاة ثم أخيراً نزلت الآيات التي تحرم شرب
الخمر إطلاقاً .

وقد كان سبب هذا التدرج في التحريم هو شيوع البلوى
وكذلك كان إلغاء الرق في الإسلام بالتصفية التدرجية بالعتق
وأخذ الفدية من الأسير أو إطلاقه دون استرقاق والسبب أن
الرق كان هو الآخر بلاء شائعاً وكان تحريمه بضربة واحدة باترة
معناها خروج ألوف المتعطلين والمتسولين بلا عمل سوى السرقة
أو الدعارة .. ولأن إلغاء الرق كان أمراً مستحيلاً من طرف
واحد فقد كان المسلمون والمشركون طرفين في حرب سجل
ولو أن المسلمين امتنعوا عن استرقاق الأسرى من طرفهم دون
معاملة مساوية في الطرف الآخر لكان هذا الشرع ظلاً للمسلمين
الذين يقعون أسرى وأرقاء على الطرف الآخر .. إن شيوع
البلوى كان دائماً عاملاً هاماً في التشريع ودافعاً إلى التدرج في
الإصلاح ..

إن الحقيقة التي يجب أن يفتن لها الجميع أن الشباب لم
ينحرف وحده ولكن البيئة انحرفت والمناخ الاجتماعي انحرف

والفن انحرف والفكر انحرف والسياسة انحرفت .. وفي داخل البرلمان وجدنا تجار مخدرات يعتصمون بالحصانة البرلمانية وفيهم زعامات .. إننا بالفعل نعيش في عصر تاناكا .. وكبار اللصوص هم الأولى بقطع الأيدي ومنتجو الأفلام الجنسية هم الأولى بالرجم وماфия المخدرات وبعضهم في أعلى المناصب هم الأولى بالشنق وإذا ناديتهم بالشرعية فأنا أقول نعم وأنا أنادي معكم .. ولكني أسأل أولاً .. من يقطع يد من في هذه الغاية ..

ومن منكم لم يرتكب خطيئة ليكون الرامي بأول حجر .. أقول الشرعية واجبة وهي حق ، ولكن الطريق إليها ليس العقاب وحده ولكن الإصلاح أولاً .. لا بد من إصلاح اجتماعي يجعل الفضيلة ممكنة قبل أن نعاقب تاركها .. ومن ثم لا بد من التدرج والأخذ بمبدأ تطبيق الشرعية على مراحل لأن إصلاح المناخ الاجتماعي والفكر والفكر والسياسي والاقتصادي لا يمكن أن يتم بين يوم وليلة .

هذه نظرة واقعية أعلم أنها لن تعجب هؤلاء الذين يحملون بإصلاح كل شيء بانقلاب ويتصورون أن المدافع الرشاشة يمكن أن تحسم كل شيء وتأتي بالشرعية على ظهور الدبابات ، وأن الفضائل يمكن أن تصنع قهراً وأن الشرف يمكن أن يولد بالرعب .

وأقول هؤلاء إن العنف لا يلد إلا النفاق والكذب والتملق

وأن الخوف لا يلد إلا السلبية واللامبالاة .. وأن القوة لا تلد إلا مراكز قوة تأتي ومعها الإذلال والإرهاب والتنكيل ، وليس الحرية والكرامة والعزة . ولقد رأينا بأعيننا ماذا يفعل الجالسون في مراكز القوة . ولن تأتي الشرعية بهذه الوسائل أبداً ، لأن الشرعية رحمة ومحبة ، ولا وسائل لتحقيقها إلا الرحمة والمحبة . الشرعية هي قمة الحكمة الربانية .. وهي تحتاج إلى ذروة الحكمة البشرية في الفهم وفي التطبيق .. وأي كلام غير ذلك غوغائية ومزايدات حزبية وبالونات دخان للتنمية ، وأي تطبيق للشرعية بدون فهم لن يكون سوى إجراءات مظهرية ، وبمجرد مرهم سطحي لخراج معبأ بالصديد .

إن التقوى هي روح الأمر كله .

وحينما تزداد حرارة الإيمان وتسكن القلوب إلى ربها لا يعود الواحد منا يختار إلا ما اختار له ربه ويصبح هواه فيها شرعه له الله دون تكلف .

وحسن التربية في البيت والمدرسة والجامعة والمصنع .
وحسن القدوة في الأب والمدرس ورئيس العمل وزعيم الحزب .

وحسن الدعوة إلى منهج الله بالقول الحسن والسلوك الحسن .

كل هذه وسائل أكثر فعالية في تطبيق الشرعية من المزايدات

الانتخابية ، وفي القرآن يعلمنا ربنا قائلا في آياته :

﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ .

ولن تجدوا واحداً من الخمسة والأربعين مليوناً يرفض الحسن من كل شيء ، والشرعية هي الحسن من كل شيء ، بل هي الأحسن من كل شيء .

عن التصوف

يحكون لنا عن الحلاج الذي كان يقف في شوارع بغداد هاتفاً .. أنا الله .. سبحانه ما أعظم شأنى .. يا خلق الله ما فى الجبة غير الله ..

وكيف تصيد له قضاته هذه الكلمات وأمثالها وحكموا عليه بالإعدام بتهمة الكفر .

ويعتذر الصوفية عن الرجل فيقولون : إن مثل هذا الكلام لا يصح أن يؤخذ على علاته - فالحلاج صوفى من أهل المواجد والأحوال .

وهو لم يكن فى طوره حينما كان ينطق الكلمات ، وإنما كان فى حالة من الوجد والمحبة والوله ، وقد بلغ به حبه لله إلى ذروة فناء فى محبوبه فما عاد يدرك لنفسه وجودا وغياب تماماً عن نفسه فأصبح الله هو الذى يتكلم على لسانه فيقول : أنا الله .

ويسمون هذه اللحظة لحظة الشهود ... أو التجلى حينها
 يتجلى الله على قلب عبده فينشق العبد وينقى ويصبح عدما
 ويصبح الحضور لله ولا سواه ، والكلمة لله ولا سواه .
 وشأنه في ذلك شأن المجدوب المطلوب اللب والفؤاد
 والعقل ... والصوفي كذلك يجذب إلى الحضرة الجلالية جذبا
 لا حيلة له فيه فيرفع إلى حال من الرؤية وإلى جرعة من الحق
 أكبر من طاقته ، فتفقد العقل والقدرة وتفرون تراباً مثل الجبل
 الذي اندك دكاً ، وموسى الذي خر صعقاً .
 وتمتلئ كتب الصوفية بمثل هذه المواقف ، وبمثل هذه المواجهات
 والحالات وتستفيض في وصفها .. ولا تملك حياها إلا التحفظ
 الشديد .

ورأى أن هذا الجانب من الصوفية ، هو واد كثير المهالك ..
 ومزلق خطر .. وأن السير فيه يضر أكثر مما ينفع .
 وأخطر ما في هذا المزلق أنه يمكن أن يجر الصوفي إلى فكرة
 وحدة الوجود .. وهي الفكرة التي تقوم عليها الفلسفة الهندية ،
 والتي تقول بوحدة الخالق والمخلوق ، وأن الله حال في مخلوقاته
 متحد بهم .. وأنه هو وهم واحد .. فهو القاتل والقتيل والسكين ،
 وهو الذي خلقهم معاً في وقت واحد .. وفي جراب واحد .. بمثل
 ما يقول الحلاج .. إن الله في الجبة .. وهو كلام إذا مددناه على
 استقامته بالطريقة الفلسفية ينتهي بنا إلى نفى وجود الله

لا إثباته .. فكل ما نعرف به حينئذ هو مجموع ما نرى من
 وجود نعتقد أن هو في جملة هو الله .. وهي عبارة مهذبة للإيمان
 بالوجود الموجود ونفى ما عداه أي نفى الله في ذات الوقت ..
 ولهذا تلتقى الفلسفة البوذية والهندية مع الفكر المادى .
 وأستبعد أن يكون بوذا لو أنه كان نبياً بحق أن يكون قد قال
 هذا الكلام .. وربما يكون حاله كحال المسيح الذي شبه اليهود
 تعاليمه ، وزيفوا أقواله من بعده وادعوا أنه قال أنا الرب ..
 أنا الله .

ولهذا يحرص الصوفية كلما ذكر الحلاج على توضيح أقواله
 بهذه المذكرة التفسيرية التي يقولون فيها إنه كان غائباً عن نفسه
 حينما كان يتكلم .

وأهم من هذه المذكرة التفسيرية في نظري أن نحاول فهم الله
 كما قدم لنا نفسه في القرآن .
 والله في القرآن هو المتعالى .

هو متعال على خلقه ، كما يتعالى الصانع على صنعته ، وكما
 يتعالى الفاعل على المفعول .. وهو ليس في « وحدة وجود » مع
 صنعته ، وليس متحداً بها ولا حالاً فيها .. كما تصنع أنت الموتور
 فلا تكون متحداً به ولا حالاً فيه .. وإنما تكون متعالياً عليه .. لو
 كان للموتور لسان ، ولو أنه تكلم وقال لن أتحرك .. فإنك تقول
 له بل تتحرك وتوصل سلاكه بالكهرباء فتديره برغم أنفه ..

فأنت متعال عليه .. وأنت القاهر بالنسبة له .

وبالمثل الله في القرآن هو القاهر فوق عباده . و « فوق » هنا لا تعني المكان ، وإنما تعني فوقية في الرتبة .. لأن الله متعال على المكان أيضا .. وهو أيضا متعال على الزمان ، فهو لا يتحيز في حيز ولا هو يتزمن بفترة .. ولهذا كان الأول والآخر والظاهر والباطن .. الأول قبل الزمان وقبل الوجود لأنه خالق للزمان والوجود .. والآخر بعد انتهاء الزمان وانتهاء الوجود ، لأنه الباقي بعد الكل . وهو الظاهر . وليس معنى ذلك أنه الحلاج أو غير الحلاج وإنما المقصود بكونه « الظاهر والباطن » .. إن الظاهر هو فعله .. والباطن ذاته .. وكل ما نرى ويظهر لنا ويجري علينا هو بعض أفعاله .. فكلمة الظاهر هنا مقصود بها وجه الشمول .. الظاهر اليوم وبالأمس وعبر القرون الماضية والقرون الآتية كل ذلك فعله . ثم من قبل ذلك هو كائن فهو الأول ومن بعد ذلك يكون فهو الآخر .

والاتحاد بالله لا يقول به الإسلام لأنه غير ممكن .. وإنما الإسلام يقول بالقرب والبعد والجمع والفرق .. فهناك المقربون مثل الأنبياء والشهداء والصديقين .. وهناك المبعدون مثل الكفار والصالحون مجموعون على الله .

والمجرمون مفرقون عنه .
وهذا هو الجمع والفرق .

أما الاتحاد والوحدة والحلول فهي أمور يتنزه عنها الله .. فهو العلى المتعالى عن هذه الصفات .

واقه في القرآن هو الأحد .. والفرق بين الأحد والواحد أن الأحد لا ينقسم ولا يتجزأ وليس له بعض أو نصف . ولهذا فهو « السلام » لأنه لا ينقسم على نفسه ... ولأنه يجمع الأضداد في تكامل لا تناقض فيه .. فهو المعز المذل الباسط القابض الرافع الخافض النافع الضار .. هو جامع هذه الأضداد دون تناقض ودون تضارع ، فيجمع في ذاته النفع والضرر والجبروت والرحمة في وحدة سلام لا تقبل القسمة .. وهي ذروة في الكمال لا تصل إليها إلهامنا .

وقد نفهم نحن هذه الوحدة الداخلية بعض الشيء حينما نتوحد نحن أيضاً في داخلنا .. فتكون نية الواحدة منا مثل قولنا مثل فعله ، فيكون واحداً قلباً وعقلاً وعاطفة وعملاً .. وهو ما نصير إليه بالتوحيد وعبادة الواحد والتزام الطريق .
واقه في القرآن هو الحي وما سواه هالك أو صائر إلى هلاك .. وإذا كنا نحيا اليوم فإنما نحيا به بمدده فهو الحي الذي به الحياة فإذا انقطع مدده لم يبق لنا من وجودنا إلا العدم . وهذا معنى كلمة « قيوم » أي أنه يقيمنا .. وأنا به نقوم ، كما أن الأفلاك والنجوم مسوكة بقيضته جارية بقوانينه فهو قيومها .. وهو قيوم كل شيء .. قيوم هذه الحياة ، وقيوم الحياة

الأخرى حينما يقيمنا من الموت فلا يمكن أن يقوم أى شيء
أو يوجد إلا بفضلله .

وهو البصير بلا بصر ، والسميع بلا سمع ، والمتكلم بلا كلام
وبلا حروف .. فإله لا يبصر بعين كما نبصر نحن ، ولا يسمع
بأذن ولا يتكلم بلسان .. وإنما الله يبصر بذاته ويسمع بذاته
ويتكلم بذاته ، بلا أدوات وبلا حروف وبلا لغة .. وكلمة الله
روح وإرادة ومشئنة ، يقول لنا الله فى القرآن إن المسيح « كلمته
ألقاها إلى مريم وروح منه » فالمسيح كلمته كما أن آدم كلمته .
وهو الخالق البارئ المصور . الخالق فى الملكوت حيث خلقنا
نفوساً بكلماته وعلمه . والبارئ حينما أعطى تلك النفوس رخصة
الوجود . كما يعطى الملك براءة الوسام ، فيصبح المواطن الحق
فى أن يلبسه والرخصة فى عمله .. وهو رمز لإطلاق تلك النفوس
من قبضته .

والمصور حينما أنزل تلك النفوس إلى الدنيا بأمره وصور لها
قوالبها فى الأرحام .. ﴿ يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ .
وهو النور .

ونور الله هو ما يقذف فى الضمائر والسرائر ، وهو نور
الفطرة والبديهة ، ونور العقل الذى يكشف به الحق من
الباطل .. ولا يقصد به نور الشمس أو الكهرباء أو النجوم ،
فكل تلك الأنوار ظواهر مخلوقة مصيرها إلى الانطفاء .

وهو الصمد من الصمود والثبات والاستقرار حيث كل شيء
من حوله يضطرب ويتغير ، وهو الصمد الذى لا يتغير
ولا يضطرب كالمرساة وسط البحر يوج من حولها البحر
ويضطرب ولا ملاذ للسفن من هذا الاضطراب إلا اللجوء إلى
المرساة واللواذ بها ، وهو لهذا الصمد الذى يصمد إليه ويلجأ إليه
من دوامة الخيالات والأوهام والأضاليل التى اسمها الدنيا .

والصمد بمعنى المصمت المتدامج .. فكل شيء مخلخل له جوف
إلا هو .. والمادة كلها مخلخلة والذرة مخلخلة وجميع مكونات الذرة
مخلخلة ، لأنها تركيبات من أجزاء مآها العطب والفساد
والانحلال .. ماعدا هو .. الجوهر الفرد .. الذى لا يتألف من
أجزاء ولا عناصر ، المصمت بلا جوف .. الأحد الصمد .
وهو الرحمن من مطلق الرحمة .. فيرحم بالعذاب وبالعقاب
كما تضرب ابنك المذنب رحمة له وتأديباً .

وهو الرحيم بالمعنى الخاص والمخالص للرحمة فيمنحه خالصة
لأحبابه .

وهو اللطيف أى الخفى الشديد الخفاء فى
فيخيل لك أنك أنت الذى تفعل ، ويخترع
الذى تخبر . لأنه أحال عليك الأد
وأعطاك المواد الخام وأعطاك العقل

والخشيب وأهلك قوانين الطفو فاخترعت السفينة وهي في الحقيقة من خلقه .

﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ .

(٢٤ - الرحمن)

﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾ .

(٣٢ - إبراهيم)

ولكنه يعمل من وراء حجاب الأسباب فيخيل إليك أنك أنت الذي تعمل .

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

وهو يفعل ذلك بلطف وخفاء واستسرار لا يدرك .
وبين كونك مخيراً وكونك مسيراً خيط دقيق كالشعرة لا يبين .

فأنت مخير في النية والضمير والسريرة .. ثم هو في الخارج يجري عليك الأسباب والمقادير لتخرج ما تكتمه وتلبس بحقيقتك .

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ . (٧٢ - البقرة)

وهذا غاية اللطف والخفاء .

في هذا البحر المليء بالخفايا يخوض الصوفية ولهذا تكثر بينهم المهالك ويضل منهم الكثير ويختلط على الواحد منهم الحال في لحظة الوجد والجذب فيقول : « أنا الله » .

ولهذا نصح بعض الأئمة من المسلمين بتجنب طرق الصوفية .. وقالوا في ذلك إن النبي الذي أمرنا جميعاً بأن نتخذ منه أسوة ، لم يعرف عنه حال الجذب ولا كان من أهل المواجهين ، ولم يذكر لنا التاريخ أنه راح مرة في غيبوبة الحب هذه ولا كذلك عيسى ولا إبراهيم وهو الخليل الذي كان يكلمه الله كما يكلم الخليل خليله .. وحينما خر موسى صعقاً عندما طلب رؤية الله كان ذلك من الله تحذيراً وعقاباً لأن موسى طلب ما لا يجوز طلبه .

وهؤلاء هم الأنبياء أهل القدوة والأسوة والاتباع .
والمؤمن الصالح في الإسلام هو رجل عامل وليس رجلاً معتزلاً متأملاً في المخلوات .. ولو كان أبو بكر وعمر صوفيين من طراز الحلاج لما قام للإسلام بنيان ولما ارتفعت له أركان شداد .
ويرد الغزالي على ذلك فيقول إن الصوفي بالفعل ليس هو النموذج العام الذي يطلب من المسلم اتباعه .. وعامة المسلمين غير مندوبين إلى الصوفية .. والصوفية في النهاية هم خاصة الخاصة وقلة القلة من القادرين المؤهلين على الجهاد الأكبر بترويض النفس ومخالفة الهوى والسلوك في بحار الغيوب واستطلاع الأعماق والأسرار .. وقد أراد الله أن تكون كثرة الناس من أهل الغفلة ليشتغلوا بعمارة الدنيا .. واستصفي القلة وقلة القلة لنفسه ..

والنبي عاش الصوفية والعزلة في مرحلة غار حراء التي استمرت أكثر من أربع عشرة سنة .. وأقواله وأحاديثه تشهد على الجانب الصوفي في شخصيته .

وبالمثل نجد هذا الجانب الصوفي واضحاً في رجل مثل علي بن أبي طالب .

ونجد عيسى يعتزل الناس في خلوة تأمل مع نفسه يقضيها في البرية قبل أن يعود فينزل للناس .

ونجد موسى في خلوة الأربعين يوماً ينفذ مشيئة إلهية وشرطاً للتأهل والاستعداد ليصل إلى اللياقة والصلاحية الروحية لنزول الألواح عليه .

إن الجانب الصوفي كان دائماً جزءاً لا يتجزأ من النبوة وإنما اختلف الأنبياء عن غيرهم في كمال شخصياتهم فجمعوا بين الفكر والعمل .. وبين العزلة عن الناس والنزول إلى الناس .

وهذا الكمال لا يتيسر للكثيرين .. وإنما نجد في الكثرة طفيان جانب على جانب .. فنجد من تطفئ على شخصيته خصائص العمل ومن تطفئ على شخصيته خصائص العزلة والتأمل .

ووجود الصوفي المتأمل والكاتب كالغزالي وابن عطاء الله والجيلي ، لا يمنع قيام رجل الفعل والعمل والقيادة كعمر وأبي بكر وخالد بن الوليد .

وإنما هو التنوع الضروري والطبيعي للشخصية الإنسانية كما تتنوع بصمات الأصابع .. ولا يحق لنا أن نصادر قيام نوع ونوجب قيام نوع .. بحجة أن هذا مع الإسلام وهذا ضده .. فإنها تكون مصادرة باطلة حتى من ناحية العقيدة .. فلم يخل القرآن من اللمحات الصوفية .. فهو في أكثر من مكان يصف الدنيا بأنها طهو ولعب ، وأنها حصاد الغرور ، ومحضنا على الزهد في بريقها .. وهي نظرة صوفية .

وهو في عالم الشهادة لا يرى مشهوداً إلا الله وأفعاله ويقول لنا :

﴿ أيتها تولوا فثم وجه الله ﴾ .

.. ويأمرنا أن نشهد بأن لا إله إلا الله .. وبأن لا مشهود بحق سواه .. ولا موجود بحق سواه .. وهي نظرة صوفية . ومن أساء الله أنه .. « الحق » .. وما سواه باطل وهي نظرة صوفية .

الصوفية إذن في جوهر الدين وليست ابتداءً في الدين . ويصح أن نسميها درجة تخصص .. يحرص أصحابه على استصفاء الدين من مرتبة الطقوسية إلى مرتبة الحب ، فتكون العبادة عندهم حياً لا طقساً .

وهم يبحثون عن الحقيقة لا لينقضوا بها الشريعة ليؤكدوها ويزيدوها تثبيتاً .. والصوفي الحق سلوكه عين

وإن هام قلبه مع الحقيقة .

ومع ذلك يجب أن نعترف أن الصوفي السالك يمكن أن يضل وتختلط عليه الأمور ويكون ضرره أكثر من نفعه .
والقائلون بأن أودية الصوفية هي أودية المهالك .. عندهم بعض الحق .. فالصوفي سالك في بحار الغيب . وهو لهذا معرض لكل الأخطار ، وأهون هذه الأخطار . الفرق في التيه .. والجذب .. وذهاب العقل .

ولكن الناجي الفائز في هذه المسالك هو الناطق بالدرر المتحدث بالجواهر .

ونجد هذه الدرر والجواهر في تراث الصوفية الذي خلفه لنا الأئمة العظام .. ولن نجد الواصل الحق منهم يقول : « أنا الله » .. بل يقول : « هو الله » .. فهذه نهاية المطاف في رحلة الحج في دروب الغيب .

« هو الله »

« هو »

كلمة « هو »

التي لا تعني أكثر من مجرد إشارة إلى ما تعجز عنه جميع الألفاظ والعبارات .. وما لا تحيط به اللغات .

« هو »

محض إشارة .

ثم تسكت الألسن .. وتحجب الأقلام .. وترفع الصحف .. ثم لا تبقى إلا العيان تدمعان بما لا سبيل إلى التعبير عنه .

سبحانه وتعالى عما يصفون .
فهو لا يوصف .. وما وصف نفسه إلا تنزلاً لتدركه أفهامنا .. وما أطلق على نفسه الأسماء إلا تنزلاً منه للدعوى .

ولكنه فوق الأسماء والصفات .. فلا هو روح ولا هو جسد ولا هو مادة ولا هو صورة ولا هو معنى ولا هو فكرة ولا هو شيء .. ولا هو بين يحل في زمان ولا هو بين يتحيز في مكان ولا هو بين يتعد أو يمتزج أو ينقسم أو يتعدد .. إنما هو غير كل هذا .

وهو متعال على كل ما نعرف .

وهو غيب الغيب .

وغاية ما يصل إليه العقل في تصور الله هو .. البهت ..

والحيرة .. والعجز ..

وذروة المعرفة هي العجز عن المعرفة لهذا الأمر الذي يملأ القلب ولا يجد له اللسان وصفاً ولا تعبيراً .

لا سبيل إليه إلا بالإندرة .

ولهذا حفل القرآن بالإشارات .. الم .. الر .. حم .. ن ..
ص .. ق .. وذلك حينما تقطعت أنفاس العبارات عن بلوغ

مراميه .. فلم تبق إلا الإيماء .. والحروف المرتجفة التي تشير إلى الإيهام .
« هو »

نهاية الرحلة التي يحج فيها العقل إلى الحقيقة . وهو إذ يبلغها .. لا يبقى له إلا أن يطوف عريان العقل خاشع القلب .. مسلم الحواس .. وقد أسلم الفعل للفاعل .. وأسلمت الإرادة للمريد .. وأسلمت القوة للقوى .. وأسلم الحول لمن لا حول ولا قوة إلا به .

ونسأل المنكرين ..

من هم هؤلاء الذين وصفهم القرآن بأنهم :
- يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما .
- والذين قليلا من الليل ما يهجعون وبالأصباح هم يستغفرون .

- والذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض .

- والذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .

- والذين إذا سمعوا آياته خروا إلى الأذقان سجدا وبُكيا .

- والذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

- والذين اقتحموا العقبة وفكروا الرقبة وأطعموا المسكين واليتيم في يوم ذي مسغبة ويوم ذي متربة .
- والذين أتوا قلوبهم غشاوة لا يرون الله إلا وجهه ما يرره أمامهم .

- والذين يذكرون الله في أنفسهم تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول في الغدو والآصال ولا يغفلون مع الغافلين .

- والذين يصبرون أنفسهم مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا يعدون بأعينهم عنهم يريدون زينة الحياة الدنيا ولا يطيعون من أغفل الله قلوبهم عن ذكره .
- والذين لا يرون في الدنيا إلا أنها لهو ولعب وتفاخر وتكاثر

في الأموال والأولاد وأنها مثل زرع أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما .

- والذين التزموا أمر القرآن ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

- والذين أخلصهم الله بخالصة ذكرى الدار ، والذين هم عنده لمن المصطفين الأخيار .

أليست كل هذه الصفات في مجموعها هي ما ينطبق على المخلق الصوفي ، والمنهج الصوفي في التجرد وإخلاص الوجه لله وتفريغ القلب من شواغل الدنيا وجمع الهمة في الذكر ، وتعمير الوقت بالعبادة سجودا وركوعا وقياما وتهجدا وبكاء ودعاء .

فلماذا لا يطبق بعض القوم ذكر التصوف والصوفية ويرون فيها بدعاً من الأمر .

وإذا تركنا اللفظة نفسها .. لفظة الصوفية .. أليس المضمون والمحتوى هو ذات المضمون والمحتوى الذى وصفه القرآن . ولا نقصد بالصوفية فى كلامنا أهل الخرق والشعوذات والمتسولين الذين رقصوا الأخذ بالأسباب ، وغالوا فى الزهد وصاموا الدهر وانقطعوا عن النساء ، فتلك انحرافات نجدها فى كل مذهب وفى كل ملة وهى لا تدين المذهب ولكنها تدين أصحابها .. فالمشعوذون فى الطب ليسوا حجة على الطب ولكنهم حجة على أنفسهم .. ومازال الطب علماً محترماً برغم أن بعض أهله انحرفوا واتخذوه تجارة وتدجيلاً .. ولا خلاف أننا ضد المنحرفين من كل ملة وقد كتبنا وأفضنا فى انحرافات بعض لصوفيين ورفضناهم .

ولكن إذا قصرنا كلامنا على المعنى المقصود من الصوفية كما حلمناها من الكبار الكمل أمثال الشاذلى والرفاعى والنفرى وابن عطاء الله السكندرى وغيرهم من الأكابر من أهل المجاهدات .. فنحن فى صميم الإسلام لم نخرج عنه ، بل نحن فى القلب من العقيدة الإسلامية ونحن فى المرتبة العليا التى قال عنها الحديث إنها مرتبة الإحسان .. وذلك بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه . فإنه يراك .

ثم من هم أقدر الناس على تجسيد كلمة الشهادة : « أشهد أن لا إله إلا الله » .

من ترتفع عندهم العقيدة إلى درجة الشهود .. بل وحدة الشهود . فلا يرون إلا الله فى جميع ما يجرى حولهم من أحكام . إن كلمة « أشهد » تكاد تخص الصوفية وتصنفهم وحدهم فإن عموم الناس يرددون كلمة « أشهد أن لا إله إلا الله » بمعنى « أقر أن لا إله إلا الله » .. ولكن « أشهد » فيها خصوص معنى أقوى من مجرد الإقرار المنطقى أو العقلى ، فهى شهود بالعين وبالقلب وذلك أمر لا يستطيع أن يباشره إلا صوفى بلغ فى إسلامه مرتبة الإحسان .. فهو يعبد الله كأنه يراه .. وتفطن فى كلمة الحديث .. « كأنه يراه » .. إنه يحكى عن « نوع شهود » .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. وتلك هى المرتبة الأدنى التى يمكن أن يشترك فيها الكثرة الباقية من المسلمين المحسنين .. إن الصوفيين المخلصين قد استصفوا بالفعل من القرآن أعلى مراتبه وتنطبق عليهم الآية ..

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾
ومن الواضح أن القرآن يشتمل على أوامر للعامة وأوامر للخاصة الذين يريدون القربى والزلفى .
للأولين يقول : اتقوا الله ما استطعتم .
وللآخرين يقول : اتقوا الله حق تقاته .

والمصوفيون الكمل من أهل الله يختارون أحسن ما أنزل إليهم من الأمر ليكونوا أكثر قربى وزلفى ، وليكونوا أهل الله الذين هم أهله .. وفي ذلك غليتنافس المتنافسون .
هنا بالحق المجال الذى يستحق أن يتنافس فيه الناس ، وليس مكاسب الدنيا وعرضها الزائل .. فذلك هو المجال الشيطاني للتنافس .. وذلك هو التنافس السهل .. ولا يثمر إلا عرضاً زائلاً .

أما التنافس الآخر على رضا الله والقرب منه فهو الذى يثمر نعيماً باقياً ورضواناً أكبر لا حد له ولا منتهى .
وهم أقرب ما يكونون إلى الملائكة .. الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

إن التراث الصوفي في الإسلام ، خاصة التراث الصوفي السني الملتزم ، القائم على الشريعة ، لا ينحرف بالإسلام .. ولكنه يؤكد ويشرحه .. وهو تنمة ومذكرة إيضاحية مهمة عن معنى الدين ، ومعنى الإسلام علماً وعملاً ومباشرة وقدوة .. وهو جدير منا بأن نقرأه ونتفهمه ونحققه ونستصفي أحسن ما فيه .. ففيه من الجواهر والآلئ والمراجين ما لا يستطيع أن يبلغه إلا الفواصون الذين أفردهم الله وعلمهم كيف تكون ملاحظة الأعماق ، واصطياد الحقائق .

الفردية والتفرد

عرفنا بصمة الأصبع كعلامة مميزة لشخصية صاحبها وعرفنا أنه منذ آدم لم تتشابه بصمتان حتى بين أبناء البطن الواحدة وحتى بين التوائم . واليوم نعرف أن للأسنان بصمة ، وكذلك للشفتين بصمة ، وللأذن بصمة وللصوت بصمة .. بل إن البروتين الذى تتكون منه خلايانا له في كل منا بصمة والكرات البيضاء في دماننا هي الأخرى مدموغة ومبصومة بعلامات مميزة على سطحها بحيث يتميز كل واحد فينا بباركة وهوية مادية ينفرد بها .
وهذا التوكيد من الخالق على فردية كل واحد منا دليل على أصالة هذه الفردية وأنها غير قابلة للتوبان ولا يصح لها أن تذوب في المجموع ، إلا إذا قرر صاحبها أن يضحي بها ويتنازل عنها وينذبيها فعلاً في مبدأ أو في رسالة أو في هدف شريف أو هدف غوغائى ، وإن هذه الفردية هي أمانتنا وأنا مسئولون عنها يوم

القيامة .. ولا عذر لمن يتعلل بالتبعية ولا حجة لمن يقول :
﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

(١٧٣ - الأعراف)

﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ . (٥٣ - الأنبياء)
﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾

(٢١ - لقمان)

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾

(٢٣ - الزخرف)

﴿ قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾

(١٠٤ - المائدة)

فكل هذه الحجج باطلة وكل هذه الأعذار لا تقبل لأن الله أفرد كل واحد فينا بإرادة حرة جعل لها علواً على البيئة والظروف وعلى الجماعة لا يفلت هذه الإرادة الفردية غالب إلا إذا تنازل عنها صاحبها طوعاً واختار عدم الاختيار ، وأثر التقليد والتبعية وأثر أن يكون عجيبة في يد غيره يشككه كيف يشاء وحينئذ لا يحق له أن يقول : قهرني فلان .. فحجة الله حينئذ .. بل أنت الذي أعطيت له نفسك .. وأنت الذي اخترت عدم الاختيار .. وأنت الذي فرطت في الأمانة التي في عنقك .. والأمانة في فردانيتك وخصوصيتك التي فطرتك عليها مادياً ونفسياً وروحياً .. فالسجن الذي قيد يديك ورجليك لم يكن

ليستطيع أن يطمس على قلبك أو يقيد نيتك ، فلماذا لم ترابط على الحق ولو بقلبك ولو في خاصة سرك ، وقد أعطيتك سريرة لا يقدر عليها الحديد ولا النار ، ولا سلطان لشیطان عليها ولو كان من مرده الجن .. وقد قال الله للشیطان من قبل :
﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

(٦٥ - الاسراء)

حينئذ تبطل حجة الكافرين وتخرس السنة المجرمين وتعترف الأيدي والأرجل على أصحابها ويظهر الحق ويزهق الباطل .
ويقول الله تعالى :

﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾ .

(١١٩ - المائدة)

وهذا منتهى التدليل والتشريف للصادقين أن يقال عنهم إنهم يرضون عن ربهم وهو سبحانه وتعالى منزّه عن حكمنا عليه ، وهو مستحق للحمد والرضا في كل ما يفعل ولا حاجة له في رضانا ، ولكنها لفظة الحب للمؤمن الصادق فلا حجة إذن للتعلل بالمجتمع والبيئة والظروف والعائلة والقبيلة فقد أفرد الله كلا منا بعنصر شريف أصيل يستطيع أن يقف وحده أمام المجتمع والظروف والبيئة والعائلة ويستطيع أن يصنع قراره منفرداً حراً .
ويؤكد الله تعالى هذه الفردية وبأنها متاط المحاسبة ، وبأننا

سوف نلتقي بالله أفراداً لا جماعات .

﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ . (٩٥ - مريم)
﴿ ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴾ . (٨٠ - مريم)
﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ . (٩٤ - الأنعام)

﴿ ذرفي ومن خلقت وحيداً ﴾ . (١١ - المدثر)
إن هذا الموقف الهائل سيقفه كل منا وحده فرداً منفرداً أمام الله الفرد الصمد مصداقاً للوحدانية المطلقة في المسئولية والوحدانية المطلقة في الحكم .

﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .

(١٦ - غافر)

فرد أمام فرد .. وفردانية كل منا حق بمثل ما أن فردانية الله حق وكل منا واحد صحيح لا يقبل القسمة .

وهذا تأكيد من الله بأن النفس حقيقة مطلقة ، وليست مجرد وعاء للظروف الموضوعية كما تصور كارل ماركس في فلسفته المادية ، وبأن لها علواً على الظروف وعلى البيئة المادية ، بعكس ما زعم فقهاء الماركسية الذين جعلوا للبيئة والظروف والمجتمع علواً قهرياً على النفس وسلطة حاکمة عليها .

وتلك هي البراءة التي أعطاها الله للنفس والتركيد المطلق بأنها من عنصر شريف لطيف وأن لها حاكمية على كل صنوف المادة .

وذلك مذهب العارفين وقانونهم .. أن اللطائف تحكم الكثائف .. ألا تحمل أعمدة مجال الجاذبية هيكل الكون كله .. وما هي أعمدة المجال .. وما الجاذبية ؟ ..
ألم يخرج العقل الطاقة الذرية من القمقم وينسف بها الجبال ، وما العقل إلا هذا النور اللطيف الذي نرى على ضوئه كل شيء .

ألا يحكم الضمير الجسد .. وما الضمير ؟ ..
ألا تدفع قوة البخار بقاطرة وعشرات العربات الحديدية من ألوف الأطنان .. وما البخار ؟ ..
ألا تحرك الكهرباء الموتورات وتقوم بتشغيل المصانع وما الكهرباء ؟ ..

إنها جميعها لطائف تحكم الكثائف .. والنفس أطفها جوهرأ .. إنها الواحد الصحيح الذي تخرج منه كل الأعداد والكسور العشرية واللوغاريتمات ، وكل الحساب والجبر والهندسة .. وكذلك جاءت البشرية بأعدادها من النفس الأولى الكلية .

والنفس الكلية هي أول ما خلق الله :

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ .

(١ - النساء)

إن أول ما خلق الأحد كان الواحد .. ومن الواحد جاءت جميع الأعداد :

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء ﴾ .

ولكن تظل حقيقة النفس لغزاً وتظل سرّاً مطلساً .. هل كان لنا خلق أول في أحسن تقويم ، وكان لنفوسنا وجود سابق عند الله :

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم أحرار ممنون ﴾ .

(٤ - ٥ - ٦ التين)
إن الله استثنى الصالحين في الأجر فقط ، ولكن كان حكمهم كحكم الباقي في النشأة .. لقد كانوا في أحسن تقويم ثم ردوا إلى أسفل سافلين ، فهل ما نحن فيه الآن هو أسفل سافلين ..؟؟
اختلفت التفاسير والعلم عند الله ، ولكن تظل القضية الثابتة : إن النفس حقيقة الحقائق .. وأنها تنتقل في الأحوال وأن الجسد يبلى ويموت .

في حين هي لا تموت .. وأنها مناط التشريف ومناط الحساب ومناط المساءلة .. وأتينا لم نخلق سدى :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ .

(١١٥ - المؤمنون)

﴿ أيجسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ .

(٣٦ - القيامة)

إن خلق كل شيء كان بالحق وللمحق ، وإن الحياة خلقت لتستمر بعد الموت في كفيات لا تعلمها ، وإن الرواية لن تنتهي بالموت بل سوف تتعدد فصولاً إلى ما لا نهاية حيث تكون الغاية هي اللقاء بالله في الإخلاص .

﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ .

(٦ - الانشقاق)

فالكدح سوف يتصل إلى ما لا نهاية عروجاً إلى الله في المطلق ، وتلك هي الهجرة التي أرادها الله ، لجميع الأنفس وما أشرفها وما أعظمها من هجرة وما أهون المشقات ، وما أهون عثرات الطريق إذا كان الموعد الله وهل بعد الله غاية ..؟؟

تبارك الذي ليس كمثله شيء .

بدونها لا سبيل إلى فهم أى شيء ولا سبيل إلى استمرار أى شيء ، ليس فقط ضرورة عقلية أو ضرورة فلسفية ، بل ضرورة وجودية بحتة .

الإنسان والله والكون قضية واحدة لا يفهم أحدها إلا بالآخر ولا يتفصل طرف منها عن الآخر فالله يفارقنا بعلوه ، ولكنه فينا وأقرب إلينا من حبل الوريد . فأينما تولوا فثم وجه الله . وهو معكم أينما كنتم ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم بل هو الجمال في كل جميل والقوة في كل قوى والقدرة في كل قادر وهو سبحانه نور السموات والأرض . ويؤكد لنا الدين هذا الشعور دون تفلسف فيعطى المؤمن جرعة من الراحة والسكينة والطمأنينة تكفيه مدى عمره فلا يعود يسأل أو يتساءل وإنما ينطلق يسعى ويعمل جاهداً في سبيل الخير والبر ، غير ناظر إلى مكافأة أو عوض لأن الله ذاته هو العوض ، وليس بعد الله شيء ، ثم هو يسعى دون خوف من مرض أو موت فهو يعلم أنه لا موت وإنما كدح إلى الله وسير في المنازل وصعود في معراج من التحولات لا يعلم كيف تكون فذلك غيب ولكن إيمانه يغنيه ويمتد به عبر الغيب ويطول الشهادة كلها .

والعلمانيون الذين يستنكرون علينا المزاوجة بين العلم والدين يأخذون علينا الكلام في الدين بلغة العلم .. وهم يمشون في

الدين والعلم

ليس بإنسان من لم يتوقف لحظة في أثناء عمره الطويل ليسأل نفسه .. ما الحكاية بالضبط .. من أنا ومن أكون ، ومن أين جئت وإلى أين أذهب ، وما مصيرى وما الحكمة من الألم ، وما الهدف من الوجود ، وعلام هذا اللهاث المجنون وآخر السعى موت وتراب ولا شيء .. إن الحياة دون إيمان ودون يقين بوجود إله عادل هي عبث صرف بلا معنى وبلا سند وبلا راسد .. وهى عذاب بلا حكمة وألم بلا عوض ومغامرة بلا عائد ومشروع بلا ضمان .

والإنسان إذا خلت حياته من الله هو مشروع فاشل نهايته اليأس والانتحار . وإذا كانت الحياة استمرت ثلاثة آلاف مليون سنة فلأن الله فيها ومعها ومن ورائها ومن حولها يهديها ويدعمها ويساندها وينورها .. ووجوده سبحانه وتعالى ضرورة مطلقة

انشقاق على أنفسهم طول الوقت فهم يقسمون الحقيقة إلى أجزاء
ويتصورون أن كل جزء له علية خاصة .. فهذه علية للدين وهذه
عليه للعلم ويتسبون أن تشريح الحقيقة يقتلها لأنها بطبيعتها
بسيطة وشاملة .. فالدين في ذاته علم .. هو علم بالله والعلم بالله
لا ينفصل عن العلم بمخلوقاته ، فالمعرفة بالصانع لا تنفصل عن
المعرفة بصنعه .. بل إن كل معرفة منها تؤيد الأخرى وتعززها
ولا تناقضها أو تنفيها .. فالكون كله بما يتجلى فيه من وحدة
القوانين ووحدة الخامة وانسجام الألوان والأشكال ، هو خير
شاهد على وحدة الصانع .. والكون هو مجال لقدرات الله وأفعاله
وصفاته ..

والتاريخ هو المشيئة الإلهية التي تتحقق شفرها في الحوادث ..
والتطور التكاملي في الكون هو ذلك الكدح إلى الله صعوداً مرتقى
بعد مرتقى - ونحن نرى الله في كل شيء .. وليس ذنبنا أنهم
لا يرون الله في أى شيء .. وأن نظرتهم تقف عند حدود
الميكروسكوب والتليسكوب وشاشة الرادار .. وأنهم يقسمون كل
شيء إلى ألف جزء وجزء ثم يتيهون في الأجزاء ولا يرون
إلا الأجزاء .

والعلم تراث للجميع ولا يستطيع أحد أن يدعى ملكية العلم
لنفسه ، ولا يوجد علم روسي ولا علم أمريكي ولا علم
إنجليزي وحقائق العلوم ملكية مشتركة وهي موضوع استبصار

العالم والفيلسوف والمفكر ورجل الدين ، دون أن يتهم أحدهم
بالتبعية لأحد .. فالتماس الحق من جميع سبله المتاحة هو واجب
واجبات العقل .

وعيب العلمانيين أنهم يختلفون تناقضاً بين العلم والدين ثم
يعودون فيختلفون تناقضاً بين العقل والوجدان ويعيشون في
انشقاق دائم في أنفسهم وعلى أنفسهم وذلك لبعدهم عن الرؤية
الشمولية ولغرقهم في الجزئيات ولو أن رؤيتهم ارتفعت عن الجزء
والتحمت بالكل لذابت كل هذه التناقضات ولرأوا الانسجام
الشامل في كل شيء ولكأنوا من الذين فهموا الآية .

فأينما تولوا فثم وجه الله .. إن الله واسع عليم .
فما كل هذا التلوين والتصنيف في الأشكال في هذا المتحف
الكوفي إلا تعبير عن السعة الإلهية والعلم الإلهي الذي أحاط
بكل شيء فهم أينما تولوا فإنهم يقرءون كتاب الله ويستجلون
آياته .. فليس ثمة إلا هو .. وما من الله بد .
يقول الله للعبد الصالح في كتاب المواقف والمخاطبات
للنفرى : «أنا في عين كل ناظر» ومعنى ذلك أنه في المشهد وفي
الشاهد وذلك هو الوجود مطلقاً فسبحان ربى الذى وسع كل
شيء رحمة وعلماً . لو قرأت القرآن فأنت في كلماته .. ولو قرأت
كتاب الكون فأنت في صنعه .. ولو قرأت في العلوم الطبيعية
فأنت في قوانينه .. ولو قرأت التاريخ فأنت في مشيئته .. ولو

قرأت في الفنون فأنت في تجليات اسمه « البديع والمخالف والمصور » ولا مهرب لك منه .. أتى توجهت فأنت في إحاطته .. وأجدادنا في صدر الإسلام فهموا الإسلام أحسن منا فكان الواحد منهم أمة ودائرة معارف كان ابن سينا عالماً وطبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وحجة في الرياضيات ومثله الرازي وابن رشد وابن الهيثم وغيرهم .. لم يكن الواحد منهم يضع الدين في علية ويضع العلم في علية ويقول لا أدخل هذا في ذاك ولا أدخل ذاك في هذا وإنما كان كل منهم عقلاً شمولياً ورؤية شمولية .. وكان كلما ازداد شمولاً في النظر ازداد قرباً وفهماً للدين والعلم على السواء ، حتى المفسر السلفي الذي يحتاج به الخصوم لم يكن مغلقاً على المعلومة الدينية القرآنية بل كان يحاول أن يستخدم العلوم المتاحة في عصره لفهم آيات القرآن الكريم .

حينما فسر السلف « وأرسلنا الرياح لواقح » بقولهم إنها الرياح تدفع السحب فتسقطها على الأرض مطراً ، فنلقحها وتخصبها كانوا يستعينون بالعلوم الطبيعية في زمانهم ونحن اليوم حينما اتسعت معارفنا نقول هي الرياح تحمل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة فنلقحها ، ثم حينما اتسعت معارفنا أكثر نقول هي الرياح تحمل ذرات التراب وتلقى بها في السحب فتعمل كبنود تتجمع حولها القطيرات فهي كأنما تلقحها ، وهكذا كلما تقدم ركب العلم كشف لنا المزيد من مغاليق هذه الآية الكريمة .

إتنا نسير على نفس الدرب خلفاً عن أف لم تأت بدعاً من الأمر ، بل إن السلف كانوا أحياناً يغفلون في هذا التفسير العلمي ، فيقعون في الخطأ ، فنرى الطبري على ارتفاع قدمه في التفسير يفسر الآية : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » بأنها الدجاجة تخرج من البيضة والبيضة تخرج من الدجاجة ، وأنها الجنين يخرج من النطفة المنوية ، والنطفة المنوية تعود وتخرج من الرجل البالغ .. ونعرف الآن إن المثال العلمي الذي ضربه الطبري مثال خاطئ .. فالبيضة والدجاجة هي حى يخرج من حى وكذلك النطفة هي حيوان منوى حى يخرج من حى .. ولكن الطبري كان له عذره فهكذا كانت العلوم المتاحة زمانه .. ولقد اخطأ أرسطو خطأ أكبر حينما قال بتولد الديدان من الجبن القديم وخروج الحياة من تخمر المواد الميتة .. واليوم يعرف أصغر تلميذ في أى مدرسة ابتدائية أن دود المش يخرج من بيضة ذبابة المش ، وأن التخمر يحدث بسبب ميكروب الخميرة ، وليس العكس .. هي أخطاء وقع فيها أكابر .. ولكنهم اجتهدوا فكان لهم أجر حتى على أخطائهم .

ولكن الخطأ الذى لا يفتقر أن يتوقف الاجتهاد وأن يحين العلماء خوف من أن يقال إنهم أدخلوا البدع .. وأن يتقاذف الناس الاتهام بالتكفير .. وأن ينغلق رجل العلم على علية العلم ، وأن ينغلق رجل الدين داخل قوقعة الدين ، وأن ينعدم

التواصل ، وأن ينحل التفكير إلى جزر منفصلة غير مترابطة .
وأن نفتقد الرؤية الشاملة ، وأن يختنق كل واحد في تخصصه فذلك
داية الانحدار والأفول والتخلف الحضارى .

الملك والملكوت .. وأنا

وصف الله نفسه بأنه إلهك . وبأن له ملكاً وملكوتاً وجنداً
مجندة وملأ أعلى ، وأنه قد وكل إلى كل فرد من هذا الملأ الأعلى
مهمة يقوم بها فجبريل الروح الأمين هو رسول الوحي ، وهو
الواسطة بين الله وجميع أنبيائه . وميكائيل مكلف بالأرزاق ،
وإسرافيل نافخ الصور يوم تقوم الساعة وعزرائيل قابض
الأرواح :

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ .
(السجدة - ١١)

ذلك ملك الموت .. وهم أكثر من ملك :
﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ . (الأنعام - ٦١)

ثم هناك الملائكة المحفوظة :
﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ . (طارق - ٤)

والملائكة الكاتبون :

﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾
(الانفطار ١٠ - ١١ - ١٢)

والملائكة الصافون والملائكة المسبحون والملائكة الحافون بالعرش والملائكة العالون وملائكة التصريف .

ملك عظيم من فوق سبع سموات لا يتناهى .
والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن .. لم لا يباشر الله جميع هذه الشئون بذاته مادامت بيده مقاليد كل شيء وإليه يرجع الأمر كله ؟ فلماذا لا يفعل بذاته ويدون وسائط ؟

وما الحاجة إلى كل هذا المأ ؟ والجواب .. أنها سنة الله فى خلقه .. فهو يجرى الشفاء على يد جراح ، وكان فى قدرته أن يشفى بذاته وهو يجرى الأرزاق من باب تجارة أو من باب صناعة ، وكان فى قدرته أن يوصل المال إلى أصحابه مباشرة دون أسباب .. وهو يوصل إلينا العلم بوسائط الكليات والجامعات والمدارس بل هو يوصل العلم إلى أنبيائه عن طريق جبريل - وكان بالإمكان أن يلقيه فى روعنا مباشرة .

حتى المعجزة الخارقة فإنه يجريها بواسطة فيقول عن الحمل الخارق لمريم :

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾
ويقول جبريل لمريم :

﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾

وهو أمر كان يمكن لله أن يفعله مباشرة .

تلك إذن سنته فى الدنيا .

وتلك أيضاً سنته فى الآخرة حيث يقيم على النار زبانية لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وحيث يقيم على أبواب الجنة ملائكة الرضوان .

حتى عرشه العظيم سبحانه يقول لنا القرآن إنه محمول بحمله ثمنية

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ .

وهم يحملونه ولا شك بقوة الله ذاته فما ضرورتهم ..
والجواب لضرورة سوى كرمه هو .. حيث شاء بكرمه أن يعطى صفاته الشافية للطبيب ، ويتجلى بأحكام اسمه العليم على المعلم ، ويتجلى باسمه الرزاق على التاجر ، وباسمه البديع على الفنان ، ويتكرم بقوته على حاملى عرشه ، فتلك كلها شواهد كرم منه لا شواهد حاجة إلينا .

ثم إن الوسائط أيضاً هى سنته .. فهو إذا أراد أن يعالج الجبل سلط عليه وسائط مادية مثله لتشكيله سلط عليه الرياح والأمطار والسيول تنحته وتشكله ، أو سلط عليه كائناً مادياً مثل الإنسان ينحت فيه الكهوف والسدود .. ولو أنه سبحانه تجلى على الجبل مباشرة لجعله دكا .

وحينما ظهر جبريل على صورته الحقيقية لمحمد عليه الصلاة والسلام خر مغشياً عليه .

إن تفاوت المقامات بين الله وملائكته وبين ملائكته وخلقه من البشر وبين البشر وسائر صنوف المادة الجامدة استدعى وجود البرازخ والوسائط .. فلا يطبق الأسفل أن يتجلى عليه الأعلى مباشرة .

إننا نقذف نواة الذرة وهي شيء غير منظور بشيء آخر غير منظور وهي قذائف النيوترون فتتخذ وسائط من جنس ما نتعامل معه .. فنحاول الوصول إلى الشيء الخفى باتخاذ برزخ خفى . وجبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد عليه الصلاة والسلام . وهو أيضاً البرزخ بين الله وبين جميع أنبيائه .. لأنه لا أحد من الأنبياء يطبق الحضرة الإلهية الذاتية مباشرة .. فإن تجلى هذه الحضرة يؤدي إلى سحق وبحق كل شيء .. تماماً كما رأينا من حال الجبل الذي أصبح دكا ، وموسى الذي خر صعقاً . إننا بحكم طبيعتنا البشرية لا نحتمل أنوار الذات الإلهية فاستدعى التواصل بين الطبيعتين إلى اتخاذ البرازخ . وكما أن جبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد ، فكذلك محمد عليه الصلاة والسلام هو برزخنا الأعظم ، وهو وسيلتنا وواسطتنا وياينا إلى الفهم عن الله .. لأننا بحكم طبيعتنا المحدودة لا نستطيع أن نصل إلى حضرة الإطلاق دون دليل .

إن الضرورة هنا كانت قيداً علينا نحن ، فنحن الضعفاء والله هو القوى ونحن الفقراء إليه وهو سبحانه الغنى عنا .

وكان تنزل الله بين البرازخ ليتواصل معنا كرمًا منه ولطفًا وإيناسًا .. لا حاجة منه إلينا فاقه ليس فعالاً بنا ، بل نحن الذين نفعل به ونحن الذين نرى به ونسمع به ونفهم به ونغشى به ونحيا به .. بل إنه هو هو الظاهر بوجهه في كل شيء : ﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

فهو الملك ، وهو هو جميع القوى الفعالة في المملكة وهو هو جميع ما في هذه المملكة من حق وخير وجمال وعدل وكرم وحلم ورأفة ومودة ورحمة وسمع وبصر وعلم فتلك جميعاً أسماؤه تجلت بأحكامها على ما في المملكة من خلائق .

فإذا سحب منا ربنا قيوميته عدنا عدماً واخفى مسرح الوجود كله ولم يبق إلا نوره ، فهو الحضور المستمر أبداً وأزلاً وهو الظاهر ونحن الغيب .. وهو الوجود ونحن العدم .. وهو المحجة على نفسه وهو برهان وجوده ودليل ذاته .

من مبدأ القصة حينما كان الله ولا شيء معه إلى الآن حيث مازال على ما عليه كان .. لم يجد جديد .. فكل ما حدث كان تحصيل حاصل لما في علمه .. ومازال هو على ما عليه كان فالقول بحاجة الله إلى جنوده ومملكته يعكس القضية ويقلبها .. تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .. فلا شيء فعال في ملكه وملكوته

سواء إنما هي ثياب البسها لنا ومواهب أعطها لنا وأرزاق وزعها علينا ، بل إن لبسة الوجود ذاتها منه .. وليس لنا من ذواتنا إلا العدم .

بل اللفز الذي يحيرني .. هو ذاتي نفسها أنا .. من أكون .
أما أحقية الله في كل شيء فهي أظهر من أن تكون محل شك أو مساءلة .. وبالمثل وجوده وهيئته وظهوره .
إنما أنا .. ذرة العدم .. التي هي نفسي ما أمرها .. وما خطبها وكيف تشخصت من الأزل .. وكيف جاء بها الله ومعها سرها وما تكتن ، ثم أوجدها ليخرج مكتومها وابتلاها بالشر والخير لتفصح عن سرها وتفضي مكنونها .
أنا ... ؟

وهل لي هذه الأنا .. أم أني استعرتها مع ما استعرت من الله .. فهي ثوب ضمن ما ألبسني الله من ثياب .
ذلك هو السر الذي يحيرني برغم أنه لا شيء أقرب إلى منها .. وهل هناك ما هو أقرب إلى من نفسي التي بين جنبي .. ومع ذلك فهي الطلسم .. والتهيه .. والمحال .
ثم إن اللفز يصل إلى ذروة استساراه حينها نرى الله يأمر لائكته بالسجود لهذه النفس التي تشخصت من عدم ويسخر لها ملكه وملكوته ويخضع لها الكون جميعه :

﴿ سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ .

يقول الله للعبد الكامل في كتاب المواقف والمخاطبات للنفري : أنت مني .. أنت تليني .. وكل شيء في الوجود يأتي بعدك .. لا شيء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك .. فأنت أقوى من الأرض والسماء ، أقوى من الجنة والنار ، أقوى من الحروف والأسماء أقوى من كل ما بدا في دنيا وآخره .
إذا تحققت بترك تحققت بي .. أنا الذي منه كل شيء أنا الذي أبديت كل شيء - أنا الذي هو أنا .
إلى هذه الذروة المذهلة من التشریف تصل هذه النقطة العدمية التي هي النفس الإنسانية . فيقول عنها رب العالمين :

أنت مني
أنت تليني وكل شيء في الوجود يأتي بعدك لا شيء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك .
فأنت أقوى من الأرض والسماء ، أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء .. أقوى من كل ما بدأ في دنيا وآخره -

ويقول للعبد الكامل :
إذا تحققت بترك تحققت بي .. أنا الذي منه كل شيء .
كيف يارب يتحقق الواحد منا بصره .

إذا عرف مقامه ولزم مقامه .

ليس فقط أن يبلغ مقام الكمال ، بل أيضاً يلزم هذا المقام فلا
يحيد عنه .. وذلك هو غاية التمكين والتثيبت .

وذلك هو المعراج العظيم الذي لا يقدر عليه إلا آحاد ، بل
إن الملك والملكوت ذاتها مجرد معارج لهذه النفس الكاملة والدنيا
والآخرة منازلها وهي تسير إلى ربها وقد أقدرها الله على الدنيا -
وعلى تجاوزها كما أقدرها على الآخرة وعلى تجاوزها في مراقب
السير إليه تلك هي النفس الطلسم الطلسم .
وتلك هي إمكاناتها حيث اجتمع فيها أقصى العلم وأقصى
الوجود .

وحيث هي متى أقرب إلى من كل شيء ، وأخفى على من كل
شيء ..

وحيث يبلغ إيهامها بي إلى البهت والحيرة والذهول :
من أنا ..

ومن أكون ..

أنا الذي أسجد لي الله الملك والملكوت ، وسخر لي الكون
أجمع .

أنا الذي أمرض وأشيخ وأموت ، ويفتك بي ميكروب لا يرى
لفرط تفاهته .

أنا الذي جئت من قطرة ماء وأنتهى إلى جيفة .

إلهي كم تكذب المظاهر وكم تخفى جلودنا حقائق هائلة
نحتها .

وكم تتشابه وجوهنا وتختلف منازلنا .. وكم يعيش في الأسما
والخرق من هم فوق الثريا منزلة .

لهفي على ذلك اليوم الذي تهتك فيه الأستار ويعرف كل منا
من يكون .

وترفع الحجب ويكشف الغطاء ويغدو البصر حديداً ويفاجأ
كل منا من نفسه بما لا يعلم ..

ويعرف كل منا من يكون ..

يا له من يوم ..

يا له من يوم ..

عن التطور

الكثير من رجال الدين لا يحتمل كلمة « تطور » ويرفض موضوع التطور برمته ، ظناً منه أن التسليم بالتطور يستتبع الاعتراف بأن الإنسان جاء من سلالة القرود وهو فهم خاطئ .
ودارون نفسه لم يقل بأن الإنسان جاء من سلالة أى قرد من القرود التى نعرفها .. بل هو يجزم بأن جميع هذه القرود لن يتطور أحدها إلى إنسان ولو امتد الزمان إلى ملايين السنين أو إلى أحقاب وآباد .

وعلم الوراثة والجينات هى الأخرى تنفى خروج الإنسان من قرد ، فالخريطة الكروموسومية للقرود مختلفة عن الخريطة الكروموسومية للإنسان بشكل ينفى خروج أحدهما من الآخر .
بل إن علوم التطور نفسها تقول إن كل جنس من الأجناس الموجودة هو نهاية عمياء وحارة سد بحيث لا يمكن أن يودى

جنس منها إلى جنس آخر .

وما يحدث فى حالة التهجين والتقليم والتطعيم بالجينات من فرد إلى فرد هو خروج نوعيات جديدة بالمرّة .
والكلام على أن السلالة البشرية جاءت من حلقة مفقودة تشعبت منها الحياة إلى فرعين : فرع خرجت منه سلالة قردية وفرع آخر مختلف خرجت منه سلالة بشرية .. هذا الكلام هو نظرية ظنية يمكن أن نرفضها دون حاجة إلى رفض التطور من أساسه .

وعلمياً لا يمكن لأحد أن يرفض التطور من أساسه .. لأن الحقيقة الجوهرية فى التطور . وهى خروج السلالات من بعضها البعض وتنوعها بتكرار التزاوج وتكرار التوليف بين الأمشاج أو الجينات (المورثات) .. ثم ظهور طفرات جديدة فى السلالات بين وقت وآخر .. هذا الكلام هو كلام علمى ثابت بالتجربة وهو كلام موضوعى ومؤكد .. وليس كلاماً ظنياً يقبل الطعن .

ثم إن تسلسل المخلوقات الحية فى الزمان الجيولوجى بشهادة الحفريات تؤكد ظهور الإنسان فى آخر السلسلة التى بدأت من ثلاثة آلاف مليون سنة صعوداً من كائنات بسيطة وحيدة الخلية إلى عديدة الخلايا .. رخوية ثم قشرية ثم فقرية .. ترتقى هوناً مع الزمان درجة بعد درجة وتنوعاً بعد تنوع من بكتيريا إلى طحالب

إلى فطر إلى سرخسيات إلى زهريات في المملكة النباتية ، ومن البروتوزوا إلى الإسفنج إلى الديدان إلى القشريات إلى العناكب إلى الحشرات إلى الأسماك إلى الضفادع إلى السلاحف إلى الطيور إلى الثدييات بأنواعها وأعلاها الشمبانزى .
وعمر الإنسان في أرشيف الصخور الثابت هو حوالى المليون سنة زيادة أو نقصاً .

في حين أن عمر أية حشرة يزيد على خمسمائة مليون سنة .. وعمر الطحالب ثلاثة آلاف مليون سنة ، وأول خلية طحلبية لها حفرة ثابتة مرسومة على الصخور منذ ثلاثة آلاف مليون سنة ... وعالم التطور قد يكذب وقد يضل السبيل بحسن نية .. ولكن الصخور لا تكذب .. والجبال لا تضل السبل لأنها تعمل بأمر الله وقوانينه دون تصرف .

ثم إن التكيف والتأقلم بين كل جنس حيوانى وبيئته ، وبين كل جنس نباتى وبيئته وتطور نفس عظام الأطراف لتصبح هى ذاتها أجنحة فى الطيور ، وزعانف فى الأسماك ، وسيقان فى الدواب ، ومجاديف غشائية فى الضفادع - هى الأخرى حقيقة تشرىحية .

ثم إن خروج الشرايين من القلب بخطه واحدة وعودتها بخريطة وريدية واحدة إلى الرئتين فى الأرنب والكلب والذئب

والفأر والفيل والحوت والحمامة والسلحفاة والقرد والإنسان ليست مصادفة .

ثم إن تخلف بقايا من الأعضاء المنقرضة بلا وظيفة فى كل مجموعة حيوانية فى أثناء ترقبها من عتبة إلى عتبة .. هى بصمات تشير إلى الماضى .

إن الكم العلمى الهائل من الشواهد لا يمكن كتمه بمجرد إشاحة باليد وبمجرد الرفض الساذج للموضوع كله .

وقد انقسم العلماء أمام هذه الشواهد المحيرة إلى مؤيد بدرجات للتطور ، وإلى رافض بدرجات ولكن الرفض الكامل بات مستحيلًا لأنه ببساطة موقف غير علمى .

وخلق الإنسان بنشأة مستقلة غير مسبقة بأجداد أو أسلاف حيوانيين لا تعنى أن كل فرد فى مجموعة الحيوانات والنباتات جاء بنشأة مستقلة .

إن النباتات الزهرية وحدها أمكن إحصاء خمسمائة ألف مصنف منها .. فهل معنى هذا أنه يلزم لكل صنف منها نشأة مستقلة .

وما الذى يدعونا إلى هذا التفكير المعقد إذا كانت هى بالفعل تدرج فى عائلات ، والكثير منها يقبل التهجين بين بعضها البعض .

إن المنطق البسيط سيقول بأنها تنوعات سلالية جاءت

بالتزاوج المستمر بين تواليف متعددة من الأمشاج والجينات انضافت لها عديد الصفات التي استجدت بالتكيف مع بيئات متغيرة ، وأنتجت هذا المتحف الباهر من النباتات .

وما يقال عن النبات يقال عن الحيوان .

وقد تصح النشأتان معاً .. النشأة المستقلة للبعض والنشأة التطورية السلالية التي يستنبط فيها البعض من البعض الآخر .. فتصح النظريتان دون مصادرة .

ثم إن التطوير والتحسين ليس فيه إنكار للخالق .

فإن تطوير كل شيء وتحسين كل شيء مرده إلى الله .. وقد قال بذلك دارون نفسه في رده على الكنيسة .

والتحسين لا ينفي العناية الإلهية .. بل يؤكدھا !

والترقى في الزمان هو قانون الله وسنته لكي يكون للزمان حكمة ، ولكي يكون لجهاد الكائنات وجلادها مع الظروف ثمرة وغاية ومعنى ، فلم يحدث ما حدث لنقص أو عجز في خطة الخالق تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .. وإنما هو أمر مراد لحكمة .

وإذا كانت الكنيسة قد وقفت هذا الموقف من العلم لمجودها ولسيطرة الكهنوت في فترة من الزمان على السياسة والفكر ..

فإننا نقول .. ليس عندنا كهنوت ولا حجر من علماء الدين على العلم .. بل إن ديننا نفسه علم وهو يأمرنا بالعلم .. ويأمرنا بالنظر .. بل إنه يأمرنا بالنظر في هذا الموضوع بالذات .. موضوع

كيفية بدأ الخلق :

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾

(- العنكبوت - ٢٠)

ويعلم الله أننا سوف نختلف في هذا الموضوع وسوف نضل ونخطئ ونصيب وسوف يطول بنا المشوار ، ربما إلى قيام الساعة .. ومع ذلك أمرنا .. فأمره واجب .. واختلافنا لا غبار عليه .. ولا يجوز أن يكفر أحدنا الآخر .. وإنما علينا أن نتعاون .. في مودة .. ودونما تعصب لرأي .. فالقرآن نفسه حامل أوجه .. وآيات الخلق في الكتاب من مثبته القرآن وليست من محكم القرآن لأنها تحمل أكثر من وجه من وجوه التفسير .. بل إن كلمة الأطوار جاءت بنصها في إحدى الآيات :

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً ﴾

(١٣ - ١٤ : نوح)

وفي آية أخرى :

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾

(نوح - ١٧)

وفي آية تكلم القرآن عن خلق الإنسان من طين ، وفي آية ثانية

من سلاله من طين :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ﴾

(المؤمنون - ١٢)

وفي آية تكلم القرآن عن حين من الدهر لم يكن للإنسان شأن يذكر :-

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .
(الإنسان - ١)

والكلمة النهائية في مراد هذه الآيات لا يستطيع أحد أن يدعيها فلا يعلم مراد الله إلا الله .. وإنما الكل يجتهد ويصيب ويخطئ .. فالباب مفتوح لكل صاحب علم .

كما أن الكلمة النهائية في مشكلة أصل الإنسان من الناحية البيولوجية العلمية لا يستطيع أحد أن يدعيها فما زال الأمر رهن البحث والباب مفتوح للاجتهاد .

فلا داعي لافتعال معارك والتعصب لأي جانب دون الآخر بلا حجة أو برهان .

ثم إن القرآن لم يتكلم عن خلق الإنسان باعتباره عملاً لحظياً فورياً ، وإنما يروى لنا أنه تم على مراحل :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين ﴾

(ص - ٧١ - ٧٢)

يقول ربنا جل وعلا : فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - فكيف كانت التسوية .. وكيف كان النفخ في الروح ؟!

تلك مراحل .

وفي آية أخرى يؤكد هذه المراحل :
﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾
(الأعراف - ١١)

خلقناكم ثم صورناكم .. تلك مراحل .. و « ثم » .. تقتضي زمناً إلهياً .. (واليوم عند الله بألف سنة مما تعدون ، وفي آية قرآنية أخرى بخمسين ألف سنة) . فهو إذن زمن مديد ، وأحقاب .

ثم إن الخلق والتصوير يأتي في الآية سابقاً على آدم وعلى أمر الإسجد له .. فأين كان .. إنه .. لا يمكن أن يكون تصويراً جنينياً في الأرحام .. لأنه مذكور قبل آدم وقبل الذرية .. وقبل إسجد الملائكة .. وآدم مازال وحيداً ولا ذكر لحواء بعد لنقول إنه تصوير جنيني في أرحام .

والآية بنصها من آيات الأسرار التي لا تفهم دون تأويل .. وبالمثل كلمة « تسوية » :

﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء .
(الانفطار ٧ - ٨)
ركبك ﴾

لماذا يقول ربنا : « فعدلك » .. أكان به اعوجاج فنقله الله سبحانه وتعالى بالتسوية إلى حال الاعتدال .
إن فيها المعنى الواضح للرقية والتحسين على أحسن تقوية

ثم كيف نفهم التسوية ؟

إنها تحمل التسوية المباشرة للطينة ، وتحتمل التسوية السلافية باستتباطها وتقريرها على مراحل حتى تبلغ غايتها وكمال اعتدالها .

إن الآيات تحمل وجوهاً كثيرة للفهم .

ولا نصادر رأى أحد .. ولا نجزم بشيء .. وقد نكون على خطأ في فهمنا .

وإنما فقط ندعو إلى فتح الباب والاجتهاد وعدم التعصب وعدم رفض الثابت المؤكد من العلم .

وهم يقولون إن الله لا يمكن أن يخلق شيئاً ناقصاً .. ونسألهم نحن : فما بال الأجنة تولد مشوهة . وما بال المولودون عمياناً .. والمولودون يتخلف عقلياً .. والمولودون بساق واحد أو شفة مشقوقة .. أو خرساً أو صماً . أليسوا من خلق الله ؟

وما بالكم بالزاحفات الضخمة التي نعرفها باسم الدنياصورات وكان كل واحد منها بحجم العمارة يأتي عليها العصر الجليدي فلا تستطيع أن تتكيف وتموت وتنقرض .. في حين تتكيف الحشرات وصغار الحيوانات ، وتغير المحنة وتستمر ! أكان نقص هذه الكائنات وقصورها فشلاً في الخطة الإلهية .. تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .. بل نصصح لهؤلاء ما فهموا

ونقول إن كل ما نرى حولنا من نقص ليس فشلاً في الخطة الإلهية بل إنه ضمن الخطة الإلهية .. وهو مراد ومقصود للحكمة .. فكل ما حدث هو من باب :

﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾
(يوسف - ١١١)

ومن باب :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾
(يوسف - ١٠٩)

وأحياناً ندرك الحكمة وأحياناً لا ندركها .. ولكن تظل صفحة الكون كله بما يجري فيها كتاباً حافلاً بالسير والعبر .. كتاباً يجره الله أمامنا ليريينا ويعلمنا ويشرح لنا آيات إعجازه وحكمته .. وليقول لنا في النهاية .. إن الأرض لله يورثها من يشاء ، وإن مقاليد الأحياء والإماتة بيده .. سبحانه لا يسأل عما يفعل .

ولكننا مكلفون بمأمورين بالتفكير والتأمل والتدبر وإعمال النظر .. مأمورون بذلك وإن اختلفنا .. مأمورون وإن أخطأنا .
﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾
(العنكبوت - ٢٠)

وما كتبت هذا الكلام إلا عملاً بهذا التكليف ، فإن كنت أصبت فمن الله .. وإن كنت أخطأت فمن نفسي .
ونسأل الله الهداية .

وإسرائيل السائر إلى الله .. وهكذا .. بل إن في اللغة الفرنسية الضمير « هو » ينطق أيضًا « إيل » ، ومعلوم أن الضمير « هو » من أسماء الله وفي التوراة ياهوه - أى ياهو .
أما « الرحمن » فقد جاء في نصوص تدمر قبل الإسلام « رحمانا » وفي اللغة الإيرانية رحمن معناها السلام وفي اللغة الحيثية رمان ورامون إله الصواعق وفي اللغة الآشورية رحمان هو الإله البابلي وله معبد في مدينة آشور وفي اللغة السنسكريتية الهندية « رهم » تسيحة يرددونها الصوني على مسبحتهم - وهي تقابل عندنا رحيم .

والفرق بين الرحمن والرحيم أن الرحمن يرحم ويؤدب بالعذاب .. يقول إبراهيم لأبيه :
﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾

أما الرحيم فهو الاسم المعبر عن الرحمة الخالصة .
والله يجمع بين الاسمين والصفتين فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة .

أما طه فقد ورد عن السامريين أنهم كانوا ينتظرون نبيا اسمه طاهاب وعند الهنود الحمر طاهابو هي الشمس ومعناها عندهم « أبونا » .

أما يس .. فهي تعنى باللغة الحيثية .. يا إنسان .

بحث في ألفاظ القرآن الكريم

صاحب هذا البحث هو الدكتور بهاء الدين وزدى وهو فنان سام بالإضافة إلى كونه طبيباً وكانت له معارض كثيرة في المغرب وباريس ومدريد ، وهو أيضا دارس متعمق للهبروغليفية المصرية واللغة السومرية والحضارات السامية القديمة .. وهذه أعماله الموسوعة الشمولية حاول أن يبحث في الألفاظ المراتبة ..

« يقف مثلا عند أسماء الله .. فيقول إن من أسمائه القديمة .. إيل ، وإيل في اللغة الآشورية البابلية تعنى حكومة .. وعرف رب هذا الاسم قبل الإسلام ، وجاء هذا الاسم في القرآن .. في أسماء الأنبياء والملائكة مثل .. إسماعيل وإسرائيل وإيل وجبرائيل وعزرائيل وإسرافيل .. كل اسم منها مضاف .. إيل .. وإسماعيل « بهذه الصفة » معناه السميع بالله ..

أما فرعون ذو الأوتاد الذي جاء ذكره في القرآن ، فقد
فسرها الأقدمون .. حتى فرعون ذو الجنود .. وأن الأوتاد هي
الجموع والجيوش .. ويقول المؤلف صاحب البحث : إن
الآثار حفظت لنا .. كثيرة على الجدران لقراعتة يعذبون
الأسرى بالأوتاد .. من آخرون : إن الأوتاد هي الأهرام ..
وربما كان أقرب التفسير إلى الحقيقة أن فرعون ذا الأوتاد .. هو
فرعون ذو المسلات والمسلات هي أقرب ما تكون إلى
الأوتاد .. ولقد كان تاسيس الثاني فرعون موسى أربع عشرة
مسلة .. ولعله فرعون ذو الأوتاد بعينه .

أما هامان فهي نظم . لاسم الإله آمون أو هامون أو هامان .
وقد ورد اسم هامان ابن عم الفرعون خوفو وكان هامان
وزيره وهو الذي كلفه خوفو ببناء الهرم الأكبر وقد عاش إلى
حوالي العام ٢٥٨٠ قبل الميلاد .

وهناك هامان بن حاء الذي كان في زمن أخناتون وكان هو
الآخر مهندساً معمارياً وطبيباً وفيلسوفاً .. ومن أقواله
لأخناتون .. إذا كنت تريد أن تكون ملكاً .. إذا كنت تريد أن
تحكم مصر ، فكن بناء واعمل فكرك يتحقق في المعمار وخیالك
ينطق في الحجر ، وكان تاسيس الثاني فرعون موسى له أولاد
عشرة يحملون اسم هامان .. وبعد وفاته اعتلى العرش من بعده
منفتاح ثم خلف منفتاح على العرش هامان موسى .. وربما كانت

مسي هي تحريف موسى .. ولعل هذا الهامان الأخير الذي كان
وزيراً لمنفتاح ثم خلفه على الحكم هو هامان المذكور في القرآن ..
ويكون موسى قد هرب من مصر في حكم رمسيس الثاني ثم عاد
في حكم منفتاح ويكون منفتاح هو الذي توجه بالأمر إلى وزيره :
﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعل أبلغ الأسباب ﴾
(٣٦ - غافر)

ويمثل ما كان هامان مشتقاً من آمون .. فإن العزيز (عزيز
مصر) هو الآخر مشتق من الإله إيزيس .
أما نون فيقول الزبيدي في تاج العروس إن معناها دواة .
ونون في الهيروغليفية معناها محيط الماء الأول الذي فيه كل
عناصر الخلق .. وأول ما عبد المصريون من آلهة كان الإله نون
وزوجته نونة ، ونون في العقيدة المصرية هو الحوض الدائم
للقوى الحيوية ، ونون بحر العلم والحكمة .

أما قوم عاد الذين ورد ذكرهم في القرآن ، فيقول عنهم
المؤلف : إن عاداً باللغة الآشورية معناها البشر العقارب ، وهم
أقوام أشداء ذوو بأس سكنوا جنوب الجزيرة العربية ثم انتشروا
بالغزو شمالاً وفتحوا الشام والعراق ووصلوا إلى الهند وأطراف
مصر .

ويقول المؤلف : إنه مما يلفت النظر وجود آلهة هندية اسمها
عاديات وعادي يودا وعادويتا وعادينات وأنه قرب كلكنة قبيلة

اسمها عادى وآسى تسكن التلال .

ويرى المؤلف أن إرم ذات العماد ليست اسم المدينة ، بل هي اسم لقبيلة من قوم عاد يعود أصلها لبطون آرامية .. وأن عاداً نفسها سلالة آرامية .. وجلعاد المذكورة في التوراة هي قلاع عاد جلعاد .

والأصفهاني في كتابه « تاريخ سني الملوك » يقول : إن العرب العاربة عشرة : عاد وثمود وطسم وجديس وعماليق وعبيل وأميم ورهط وجاسم وقحطان . والنبط من البطون الآرامية المتأخرة وهم من بقايا عاد ومثلهم قبائل جرهم وأخير ابن قحامي وابن الكلبي أن عاداً كانت تتكلم العربية .

وقال أبو عمر أن لسان عاد وثمود وشعيب ومدين عربي كله .

وروى عن علي بن أبي طالب قوله : إن جرهما من بقايا عاد وثقيفا من بقايا ثمود .

أما آلهة عاد فكانت العقرب والنسر والعجل والصقر وقد سموا أنفسهم البشر العقارب وبلغت المؤلف النظر إلى أسماء أماكن في لبنان مثل جب عادين أو بشر عاد ومدينة عدلون قرب صور ونهر عادونيس .

ويقول ابن خلدون أن قوم عاد وصلوا مصر واحتلوا الدلتا وبنوا مدينة أون المذكورة في التوراة .. وأنهم جاءوا مصر على

موجتين .. الموجة الأولى قبل الهكسوس والموجة الثانية مع الهكسوس ، ويستدل المؤلف على كلام ابن خلدون بأسماء مصرية مثل عاديير ماشيد وهي قبيلة تسكن في الدلتا على شفا الصحراء ومدينة عادحو التي جاء ذكرها في البرديات .
تلك بعض وقفات مع الرحلة المثيرة التي قام بها ذلك الباحث .. الدكتور بهاء الدين وردى . مع ألفاظ القرآن الكريم ..

وهي إضافة جادة وعميقة إلى المكتبة القرآنية وملاحاة استطلاعية في بحر اللغات القديمة تكشف رجها جديداً من وجوه الإعجاز القرآني هو الإعجاز التاريخي .

الصانع العظيم

هل سأل أحدكم نفسه عن كمية السباكة داخل جسمه ..
مجموع المواسير داخل العمارة التي هي بدنه ، بما فيه من آلاف
الوصلات والمجارى التي يجري فيها الدم والبول والضمام
والفضلات وعوادم التنفس والهضم .

هل يعلم أن طول مواسير الدم في جسمه تبلغ وحدها ثمانية
آلاف ميل أى أطول بكثير من المسافة بين القاهرة والخرطوم ..
مواسير أكثر نبونة من الكاوتشوك ، وأكثر متانة من الحديد ،
وأطول عمراً من الصلب الكروم ، وفي بعضها صمامات لاتسمح
بالسير إلا في اتجاه واحد .

ثم مواسير الهواء ابتداء من فتحة الأنف إلى الحلق إلى القصبة
الهوائية إلى الشعب ثم الشعبات التي تتفرع وتتفرع وتنقسم حتى
تصل إلى أكثر من مليون غرفة هوائية في الرئتين .

ثم مواسير البول التي تجمع البول من الكليتين لتصب في
المحوض ثم الحالب ثم المثانة ثم قناة الصرف النهائية .
ثم مواسير الطعام من الفم إلى البلعوم إلى المعدة إلى الاثنا
عشر إلى الأمعاء الدقيقة .

ثم مواسير الفضلات من المصران الصاعد إلى المستعرض إلى
الحابط إلى المستقيم إلى الشرج .

ثم مجرى الولادة وغرفها ودهليزها وأنايبها .

ثم مجرى المرارة وحوصلتها ومواسيرها .

ثم مجرى الليف .. ومواقف الليف ومحطاته في الغدد
الليفية .

وهي مواسير تمر إلى جوارها الفضلات وتحميها شبكة من
الأوعية الدموية والأعصاب ، وجيوش من خلايا المقاومة تلتهم
أى ميكروب يمكن أن يتسرب من هذه المواسير في طريق خاطئ
إلى الجسم .

وأنايب العرق .. وبلايين منها تشق الجلد وتفتح على سطحه
لترطبه وتبرده بالعرق .

وأنايب الدموع داخل حدقة العين تغسل العين وتجلوها .
وأنايب التشحيم داخل جفن العين تفرز المواد الزيتية لتعطى
العين تلك اللعة الساحرة .

هذا الكم الهائل من السباكة الفنية الدقيقة المعجزة التي تعيش

مائة سنة ولا تتلف .. وإذا أصابها التلف أصلحت نفسها
نفسها .

نموذج من الهندسة الإلهية العظيمة التي أهداها الله للإنسان
منحة مجانية منذ ميلاده وتولى صيانتها برحمته وعنايته .
فهل أدركنا هذه النعمة وهل قدرناها حق قدرها .
وكثير من الأمراض سببها أعطال وتلفيات في هذه السبابة .
الإسهال والإمساك والغازات وتطبل البطن ، هي أعطال
وتلفيات في أنابيب صرف الفضلات والزكام انسداد في منافذ
الهواء داخل الأنف .

والناسور هو ثقب في ماسورة الإخراج .
واحتباس البول والمفص الكلوى وآلام الكلى سببها أعطال
في أنابيب صرف البول .

إن تركيبات « الصحى » في جسمك هي التي تصنع لك
صحتك بالفعل .. بل هي صحتك ذاتها .. إن أى انقباض في
ماسورة معوية يساوى صرخة مفص ، وأى ضيق في شريان
القلب التاجي يساوى ذبحة ، وأى ضيق في مجرى الولادة
يساوى إجهاضاً وأى انسداد في قنوات فالوب يساوى عقماً وأى
انسداد في مجرى المرارة يساوى صفراء .

هذا غير مجارى الليمف والدم والغدد ، وهي تتنوع في الجسم
الآلاف ، ولكل غدة توصيلاتها وقنواتها ونظامها ودورها في

صناعة الصحة التي تتمتع بها دون أن ندرك أنها عملية تركيبية
معقدة تشترك فيها مئات الأجهزة .

إن الصحة التي نشعر أنها مجرد استطراد لأمر عاوى واقع ..
ليست بالمرءة أمراً عادياً وليست مجرد واقع مألوف ، وإنما هي
نتيجة تدبير بحكم وثمره عمليات معقدة مرسومة بعناية وقصد .
وإنما يحدث المرض حينما تتخلف هذه العناية وهي قلما
تتخلف .. فإذا تخلفت فلتشرح لنا أسرارها .. فما عرفنا معجزة
الصحة إلا بدراسة المرض ، وما عرفنا معجزة الحياة إلا
بالموت .. وبأضدادها عرفت الأشياء .

وفي محارلاتنا البدائية في بيوتنا وعمارتنا التي نبنيها وهي مجرد
ماكينات رمزية صغيرة لاتصل إلى واحد في المليون من العمارة
البشرية .. غرقنا في « شبرميه » .. تلقت مجارى القاهرة ،
وتلوث البحر بعوادم المصانع ، واختنق النيل بالفضلات التي
تلقي فيه ، ووقفنا أمام السيوف النافذة تنادى على سبائك ،
واختلط لساخن بالبارد والطاهر بالسموم ، وفشلنا في صناعة
أصغر ماكيت سبابة لاتزيد مواسيره عن خمسة أمتار ، وغرقنا في
بانيو نصف متر .. وهذه صناعتنا .. صناعة

وهذه سبابتنا وتلك سبافته .

وهذه عمارتنا .. وتلك عمارته

وهذا خلقنا .. وذاك خلقه .

١٠ الله أحسن الخالقين .
 ١١ وحدانا الله بصنعتة المبهرة وآياته الخالدة في عمارة
 النورى :
 ١٢ لئن اجتمعت الإنس والجن عرض أن يأتيوا بمثل هذا
 باتون بمثله .
 ١٣ يسحب على كل آية من آيات الله .. في الكتاب ..
 ١٤ .. أو في أنفسكم .
 ١٥ كبرى المعجزات .

عالم الوحشة « والغربة »

ماهو أكثر شيء يسعدك في هذه الدنيا ؟ ..
 المال .. الجاه .. النساء .. الحب .. الشهرة .. السلطة ..
 تصفيق الآخرين .
 إذا كنت جعلت سعادتك في هذه الأشياء فقد استودعت قلبك
 الأيدي التي تخون وتغدر وأتمنت عليها الشقاة التي تنافق وتتلون .
 إذا جعلت من المال مصدر سعادتك فقد جعلتها في مالا يدوم
 فالmaal يتفقد وبورصة الذهب والدولار لا تثبت على حال .
 وإذا جعلت سعادتك في الجاه والسلطان .. فالسلطان كما
 علمنا التاريخ كالأسد أنت اليوم راكمه وغدا أنت مأكوله .
 وإذا جعلت سعادتك في تصفيق الآخرين فالآخرين يغيرون
 آراءهم كل يوم .

لقد وضعت كل رصيدك في بنك القلق وألقيت بنفسك إلى عالم
الهم حشة والغربة واستضفت راحة بالك على الأرصفة .. ونزلت في
مادق قطاع الطرق .. ولن يهدأ لك بال ولن تعرف طعم الراحة
والآن تعرف أمنا ولا أمانا ، ولن تذوق للطمأنينة طمعا ، حتى آخر
يوم في حياتك ، لأنك أعطيت أثمن ماملك .. أعطيت روحك
لعالم الفرقة والشقاق ، ورهنت همك واهتمامك بعائد اللحظة ،
باعت قلبك بكل ما هو عابر زائل متقلب ، وأسلمت وجدانك
للهوى وحش الوقت .

وإذا جعلت سعادتك في حب امرأة .. فأين هي المرأة التي لم
تدرك ؟ وأين هو القلب الذي لم يتقلب ؟ أين نجد هذا القلب إلا
في الخيال في دواوين الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون والذين
هم في كل واد يهيمون .

يبعون ألف نبي في تقدير بعض العارفين عبروا هذه الأرض
بأفوا أقوامهم نفس الشيء وأعادوا عليهم نفس الدرس ورددوا
الكلمات .

والناس مازالوا على حالهم لا يرى الواحد منهم أبعد من

الزوال على جاهليتهم الأولى يتدافعون بالمناكب على نفس
الناس يرون حاصد الموت يحصد الرقاب من حولهم
لا يرون .

بل هم اليوم أكثر منها وأكثر تهالكا وأكثر تهافتا على الأشياء
ويقول لهم القرآن :

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

وفي أنفسهم وأقرب إليهم من حبل الوريد ، غاية الغايات
ومنتهى الأرب ، وقبلة المقاصد ومهوى الأفئدة ومتعلق جميع
المعارف .. الحق بذاته .. الله سبحانه وتعالى بنوره الأقدس .
الرحاب الأبي وشميم الجنة ورفيف الملائكة في نفوسهم ..
أقرب إليهم من حبل الوريد .. أقرب إلى الواحد منهم من
نطقه .

يقول الله للمعارف الرباني :

ليس بيني وبينك بين .

إلى هذا المدى من القرب .. وإلى هذا المدى من اللطف ..
يبلغ إنسان الرب لعبده .. ولا غرابة .. ألا تصير النفس
الإنسانية قابلة لتجليات الأسماء الإلهية فيصبح الواحد منا رهوفا
رحيما ودودا كريما حليما عفوا سميحا بصيرا عليما .

إلى هذا المدى يستوى الرحمن على عرش سماواتنا
الداخلية ، ويكاشفنا بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد .. وهو من
هو .. جامع الكمالات على إطلاقها .. ثم نتولى عنه معرضين
تدافع بالأكتاف وتسابق بالمناكب خلف كل زائل وتافه .
وتتكلم عن الحب .. وفي عمق نفوسنا من هو أولى بالحب كل

الحب .. بل واهب الحب لكل محب ومحبوب وسر الحب في كل محب ومحبوب .. بل عين القيمة في كل ماهو قيم .. وعين الجمال في كل جميل .

وتتولى معرضين تجري خلف بريق اللحظات وتشتت وتتوزع وتتجاذبنا الغوايات وتنمزيق إلى شتات ونموت في وحشة وغربة ومحصولنا مما جمعناه صفر .

والله أقام شريعته غيرة علينا وعلى ما أودع فينا من روحه ورحمة بنا حتى لا نضيع ، والشيطان يحاول أن يحجبنا عن هذا الثراء الداخلي حسداً وحقدًا على ما فضلنا الله به .. ونحن نخترنا صحبة العدو على الصديق .. ونستمع إلى العدو ولا نلتفت إلى الصديق ، ونلازم العدو ونهجر الصديق .
وما أكثر ما قتل الأقباط من أنبيائهم وأهل الغفلة من شهدائهم .

وعالمنا اليوم أشد في جاهيلته وأعنى في ماديته من كل ماضى من عوالم **﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾** .
في داخلنا الشاطئ والمرساة ویر الأمان .
سند الضمان فينا ولسنا في حاجة إلى التأمين على حياتنا في بنك خارجي لا داعي لكل هذا اللهاث المجنون على الجمع والتملك والاحتناز .. فلن نزداد بذلك أمنا .

لاداعي لكل هذا السباق والقتل على السلطة فلن نزداد بذلك قوة .

أطمئن قلباً أيها المؤمن وأعرض عن هذه الغاية التي يتعارفون فيها الكل بالمخالب والنايب ، قل كلمتك والزم معرفتك واعمل على شاكلتك ، وخض البحر فلن تبطل واعبر أرض الغربة والوحشة فلن تستوحش فلست وحدك فاقه معك .. وأينما كنت فهو معك .

لاتقف مع الواقفين أمام فآتريئة المال والجاه والنساء الباهرات والحب والشهوة والسلطة وسائر غوايات الدنيا ، فأنت غني بما في داخلك عن كل هذا .

لا يكن مبلغ همك أن تحب هذه وتلك ، وإنما ليكن همك مجموعاً على الله إلهك ، محبوباً لك مطلقاً ودائماً وأبداً .
وحسبك من المرأة التي تختارها المودة والرحمة وحسن المعاشرة .

تعلق القلب لا يصح إلا لواحد ، وانشغال الهمة لا يجوز إلا لواحد هو الله وحده جامع الكمالات .

إنما جعل عرش القلب ليستوى الرب عليه وحده وليس لهذه المرأة أوتلك .. الصباية لاتليق بالعارف الكامل .. وهو الملك حق للملك وحده وليس لأي عابر سبيل ، والله هو أغنى الشركاء عن الشرك .. وحق على من عرفه حق معرفته ألا يعبد غيره .

ألست تقطعه فيصلك ، وتكفره فيرزقك ، وتعصيه فيغفر لك ،
وتهجره فيتودد إليك .. وهو من هو المتعال ذو الجلال والجمال ..
فأين هو من هذه وتلك .. ألا يكفيك أن بابه مفتوح أبداً وعفوه
مناد عليك دائماً ؟

ألا يحرك ذلك كوامن الشوق فيك ؟
ألا يشير فيك من الوجد مالاتشيره هذه وتلك من أشباح ترابية
فانية ؟

ألا تعود فتتظر حولك ببصيرة .. وتنظر في داخلك بإلهام ..
قبل أن يجرفك التيار إلى عالم الوحشة وإلى البحر الطام الذي
يتخبطه الشيطان من المس ؟

ألا تغريك هذه الكلمات بلحظة تأمل وبوقفه مع النفس تعيد
فيها النظر .

الفجوة بيننا وبينهم

هو .. دكتوراه في الكيمياء من جامعة أسيوط .. يحمل معه
جلافة الريف وبساطته وطيبته وهي خريجة آداب قسم سياحة
تحمل معها حقيبة كريستيان ديور وتتنظر دائماً غرباً إلى باريس
لتأخذ عاداتها وقيمها وموضاتها .. في حين هو ينظر شرقاً إلى مكة
معلق القلب والفؤاد بالكتب القديمة انصفراء والمدائح النبوية
وحلقات الذكر في سيدي أبو العباس .

وهو في زيارة للسويد والنرويج مدعواً في مؤتمر علمي ..
وهو يصحب زوجته في شهر عسل ..

وهما يهبطان معاً درجات الفندق الفخم في ستكهولم .. وكلما
مر بهم تزيل أوما برأسه في تحية .. فتضغط على ذراعه هامسة .
- رد على التحية بإيماءة برأسك أنت الآخر .. أترى كم
هم مؤدبون .. تعلم .. إذا حييتهم بتحية فردوا بأحسن منها ..

أنرى النظافة حولك ، كل شيء حولك يلمع .. والأرض كأنها
مرآة .. المواعيد بالدقيقة والثانية .. الكلمة واحدة كأنها ميثاق ..
لا غش ولا احتيال ولا مكر ولا تعقيد .. المرأة هنا حرة رشيدة
مستقلة الإرادة ، تملك مفتاح عربتها ومفتاح شقتها وتخوض
الحياة بلا خوف وتختار زوجها في حرية .. وتعمل في أى مهنة
تحب .. حارسها ضميرها وحده .. يدها مع يد زوجها على دفة
القيادة .. لا رياسة لأحد على الآخر ولا تحكم ولا استبداد .. لها
نصف ما يملك إذا افترقا .. هكذا يضمنون للمرأة مستقبلها هنا
ويؤمنونها من غوائل الدهر وطفيان الرجل .. دستور الزوجية
احترام متبادل ومساواة في الحقوق وثقة وحرية من كل طرف في
الآخر ولا تدخل ولا فضول .. ولا مساواة .. ولا محاكمة .. أين
كنت بالأمس .. ولماذا جئت متأخرة ؟ تذكرة طائرتها في جيبها
وجواز سفرها في حقيبتها .. تسافر إلى آخر الدنيا وحدها ..
حرة - رشيدة مستقلة .. حارسها ضميرها وهذا يكفي .. انظر
حولك وتعلم .. هذه هي القيم التي تحتاجها في مصر .. لنصنع
مصرًا جديدة وحضارة جديدة ومدنية جديدة هذه فرصتك
لتغسل من أثره الريف وتجدد شباب عقلك .. وتشرب هذه
القيم العصرية .. لا أحب أن أصادر على تفكيرك .. ولكنى
أطالبك فقط بإعادة النظر وعدم الرفض الفورى لأى جديد ..
لا أحبك أن تشيح بيدك وتقول كلمتك التقليدية .. هذه دولة

الكفر .. فأين الكفر فيما ترى .. هل النظافة كفر .. هل الأمانة
كفر .. هل الوفاء بالوعد كفر .. هل النظام كفر .. هل العلم
المتقدم كفر .. هل الصناعة كفر ؟

ومرت امرأة بيدها كلب وأومات برأسها في تحية فرد صاحبنا
بإيماء أخرى من رأسه .. فضفطت صاحبتنا على يده في حب
وقالت وهي تلفت نظره إلى الكلب .

- أترى أصابع الكرافير كيف صفت شعر هذا الكلب ..
والفيونكة الحمراء الجميلة .. هل العطف على الحيوان الضعيف
كفر .. هل رأيت المستشفى الأنيق أمام فندق .. إنه مستشفى
للكلاب ودار حضانة للكلاب تترك المرأة كلبها في الصباح ثم
تعود لتأخذه في المساء .

قال الرجل الريفى وهو يهز رأسه غير مصدق .
- شيء عجيب .

- هل تعلم أن هناك أكثر من عشرين صنف لحوم معلية
للكلاب .. وأن المحل يترك لك الحرية لتعرضها على كلبك
ليجربها ويختار منها ما يحب .

قال الرجل الريفى وهو مازال يهز رأسه .

- شيء عجيب .. إذا كانوا يصنعون هذا بالكلاب فماذا
يصنعون لبني آدم .

- سوف ترى يا عزيزى .. لا تتعجل .

- إذا كان هذا مقام الكلب في الأسرة .. فماذا يكون مقام الأسرة في المجتمع .

- سوف ترى بنفسك الليلة .. ألسنا مدعوون معًا إلى تلك العائلة السويدية ؟

- نعم .. نعم .. لقد دعانا الدكتور كرافت على فنجان شاي لنحدثه عن مصر وعن أخبار مصر .. فهو عالم في المصريات كما تعرفين .

- بل نريده أن يحدثنا هو عن بلاده .. وعن المعجزة الأوربية .

- نعم .. صدقت .

وفي المساء كان الدكتور كرافت يمد يده ليصافحها في حرارة وهو يقول :

- أخيرا جاءت مصر إلينا .. أخيرا أصافح أحفاد حتشبوت وأخناتون يدا بيد .

قال الرجل الريفى :

- لأظن فقد اختلطت الأنساب كثيرا في بلادنا يا عزيزى الدكتور بقدر ماتعاقب عليها من فرس وروم ومقدونيين وهكسوس وعرب وإنجليز وفرنسيين .. لا أظنك اليوم تجد حفيدًا واحدًا حقيقياً لحتشبوت أو أخناتون .. لن تجد هذا

الحفيد إلا في مقابر تل العمارنة في تابوت سرق كل ما فيه .. ولم تبق إلا الجثة ..

قال الرجل وهو يتنهد آسفاً .

- صحيح .. هذا مؤسف .. لم يبق لنا إلا تاريخ ومعابد

وبرديات هيروغليفية .

ورشف الدكتور كرافت رشقة هادئة من فنجان الشاي .

- لو كنتما هنا أمس الأحد .. لسعد أبواى بكما كثيراً .. فهما

مثلى يجبان مصر كثيرا ويتسلمان أخبارها .

قال الرجل الريفى .

- وأين هما ياترى ؟

- هما عجوزان لطيفان .. وهما في هذه السن التى يصعب

فيها التفاهم والتواصل بينها وبين باقى الأسرة وحتى بينها وبين بعضها .. ولهذا انتهى بها المطاف إلى دار للمسنين .. لكل منها

غرفة منفصلة وكل منها يقطع النهار فى حل الكلمات المتقاطعة وشرب النبيذ والاستماع إلى التلفزيون ومشاهدته .. وهذا شأن

الكبار هنا حينما يتقدم بهم السن .

قال الرجل الريفى فى استغراب .

- والصغار .

- بعد الساعة عشرة يذهب كل واحد وشأنه .. لى ثلاثة

إخوة وأختا رابعة تفرقوا فى القارات الخمسة وتفرقت بهم

المصائر - الأخ الأكبر تزوج من امرأة بوذية في كمبوديا .
والأصغر قطعت ساقه في حادث وهو يعمل بارمان في كلكتا .
والأخ الأوسط يشتغل في مصنع سلاح في جنوب أفريقيا .. أما
الأخت فقد تزوجت من فيتنامي ولم تتجيب .. ثم افترقت عن
زوجها .. وأنجبت ولدا تكرر له الآن كل وقتها وتعمل مدرسة
ببانو .

- وزوجها .

- إنها لم تزوج بعد الفيتنامي .. لقد أنجبت ولدا بعد قصة
حب ، وكما تعلم هذه الفورات العاطفية تنتهي إلى لا شيء .
وتبدأ المشاكل .. وهذه مسائل عادية تحدث الآن كثيرا .
- ألا تلتقون ؟

- عبر بطاقات الكرسماس وهدايا عيد الميلاد كل عام .
ودخل الكلب وكانت حول بطنه ضمادة .
واحتضنه الدكتور كرافت في حنان بالغ .. وراح يربت على
رأسه ويقبله .

- المسكين .. عملنا له بالأمس رسم قلب كهربائي وفحص
بالأشعة وبالأمواج فوق الصوتية واتضح أن عنده ورم
سرطاني .. وقام الجراح منذ أسبوع باستئصال الورم بنجاح ..
صدقني لقد حزنت من أجله كثيرا .. ولم أذق طعم النوم منذ
أيام ..

قال الرجل الريفى وهو يقلب كفيه في حجب .
- هذا شيء مؤسف فعلا .. هذا قدره .

وراح الدكتور يسأل صاحبتنا ماذا يعنى بكلمة القدر .. وقال
إنه سمع الشرقيين يتحدثون كثيرا عن القدر .. ويلاحظ أنهم
يدسون هذه الكلمة في كل شيء .. وهذا أنت تدسها حتى في
شئون الكلاب .. صدقنى أنا لأفهم .

وأخذ الرجل الريفى يتكلم في إسهاب عن الإيمان بالله
وبالقدر .. وأن الله بيده ناصية كل المخلوق وما من دابة إلا هو آخذ
بناصيتها .. سواء كانت بهيمة أو كلبا أو حشرة .. وأنه مامن
ورقة تسقط إلا يعلمها .. وما من رطب ولا يابس إلا عنده في
كتاب .

وقال الدكتور شاخت في براءة « شديدة » .
- ولكن أين هو ؟
- من ؟

- الله الذى نقول .

فسكت الرجل الريفى وانعقد لسانه دهشة من السؤال
الفجائى ، ثم عاد يقول ببطء
- الله لا يقال عنه متى ولا أين .. لأنه هو الذى خلق المتى
والأين .. هو الذى خلق الزمان والمكان ولا يخضع لهما كما
نخضع .. هو فوق الأين .

فيداً على الدكتور شاخت أنه لا يفهم ، ولكنه قال في احترام

شديد :

- ألا يمكن أن نتكلم كلاماً أكثر وضوحاً وواقعية .. ألا يمكن أن نقول لى عن الله شيئاً ملموساً .. صدقنى أئى فى دهشة من إيمانكم العميق أياها المصريون .. إيمان بطول سبعة آلاف سنة .. إنه شيء عجيب يدهشنى .. منذ سبعة آلاف سنة وأنتم تبنون للموت ولا تعيشون للحياة ، ولكن لما بعد الحياة .. وكأنما ، أنتم متأكدون تماماً من كل شيء ألا يدهشك هذا .. من أين لكم بهذا اليقين بأن بعد الموت شيء .. لكم أئنى أن أرى الله كما ترونه » فقال الرجل الريفى فى بساطة :

- إنى لا أرى غيره .. أراه فى تفتح الزهرة وابنسامة الوليد وأراه فى الصواعق وأرى مشيئته فى حركة التاريخ ، وأرى يده فى قبضة الجاذبية التى تضم شمل الكون وتمسك بالمجرات وتحمل السموات بلا عمد .. وأراه أقرب إلى من نفسى بل أقرب إلى من نطقى . وأراه فى العباء خلف كل شيء .. فى غيب الغيب .. لا يوصف ولا يحدد .. سبحانه ليس كمثله شيء .

وحاول أن يبحث عن كلمات تقول أكثر ونفصح أكثر وتجسد أكثر .. كلمات يعبر بها الفجوة الهائلة بينه وبين محدثه ولكن لم يجد .

كانت الفجوة كبيرة .. فجوة بين حضارتين .

١٦٤

حضارة لا تؤمن إلا بما ترى وتلمس وتحس وتسمع .

حضارة مادية تبدأ من المادة وتنتهى إلى المادة وتشيد من المادة معجزات وخوارق واختراعات وسفن فضائية وقنابل وتصنع بها الدمار والعمار .

وحضاره أخرى تواقة حاملة متطبعة إلى الغيب تتصنت بالقلب والروح على ما لا يرى وما لا يسمع .. وتعتبر المادة أبداً ودائماً إلى ماوراءها .

وسكت الرجل الريفى ولم يجب كلاماً يقوله ليعبر به الفجوة وأخذ يعيد مقال وكأنما يحسب نفسه .

- إنى لا أرى غيره .. لا أرى إلا الله . سبحانه لا سواه ..

قال الدكتور كرافت .

- إنى لا أملك إلا أن أحترمك .. ولكنى لا أفهمك

وفى ذلك المساء فى الفرائض .. كان الرجل الريفى يحدث

زوجته وهو يخطب كف بكف

- أرايت .. إنه لا توجد .. لقد انفرط كل شيء ..

البنات تحمل سفاحاً ، والأخوة سرفوا فى أركان الأرض ليواجه

كل منهم مصيره بلا عون ولا سند ، والأب والأم منبوذان

يعيشان وحيدى فى دار للمسيكين . يبق إلا الكلب أقاموه صنما

بديلاً يبذلون له الود والحب . حان والعبادة التى خلت منها

الحياة .. ويحاولون أن يخلقوا .. معنى والحكمة التى سلبوها كل

شيء .. إن كل ماتشاهدينه في الفندق من تحيات وبجاملات
وأداب مائدة وسلوك مهذب ولياقة .. كلها تعبيرات فارغة
لا تدل على شيء ولا تحتوى على مضمون ... إنها مجرد حياة
تلهت وراء متع لحظية .. ثم موت ثم تراب ثم عدم .. ثم
لا معنى .. ولا حكمة .. وإنما عبث .

ولم يعجب زوجته الكلام وأعطته ظهرها .. وقالت كالعادة :
- لا تتعجل في الحكم .. ولا تستخرج حكماً عاماً من لقاء
عابر .. انظر حولك .. إنك في عالم كعرائس الخيال أبهة ونظافة
وأناقة وجمالاً وعلماً وصناعة »

قال في هدوء وقد أعطاها ظهره هو الآخر :
- كل هذا يمكن أن ينهدم في لحظة .. حينما تنهدم القيم التي
تمسك به .

كل هذا يصبح مثل النقش على الماء :
قالت في مرارة .

- وهل عندنا في مصر قيم .. هل عندنا أخلاق ؟
- صحيح لقد أصابت عدوى الانحلال الكثيرين في بلادنا ..
وصحيح عندنا فساد .. ولكن مازال عندنا أولو بقية من أهل
الخير يعرفون الله و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقومون
الليل ويسبحون النهار .. وهؤلاء هم عمدة الأرض وأركان الدنيا
يحفظ الله الدنيا من أجلهم وبدونهم لا يعود لها بقاء .

قالت وهي مازالت تنظر غرباً وقد أعطته ظهرها .
- بل أركان الدنيا هنا .. ولكنك ترفض أن تراها .. وأعمدة
الحياة حولك ولكنك تنكرها .. وناطحات السحاب تنطح السماء
وتصنع الأقدار للألوف .. والعقول الألكترونية تدبر المصائر
للملايين ، وما نسميه انحلال الأسرة هو روح الحرية ..
والمغامرة .. ولكنك لا تريد أن ترى ولا تريد أن تغير من نفسك
شيئاً .

قال وهو مازال يعطيها ظهره وينظر شرقاً .
- نسيت أن صانع كل هذا العمار .. ترك نفسه خراباً .. وأنه
يوشك أن ينتحر وأن يقتل نفسه بما صنع .. وأن عمدة الدنيا في
نظرك وأركان الأرض يوشكون أن ينقضوا على بعضهم البعض
بالأسلحة الذرية والقنابل النووية .. وأنهم لوثوا من حولهم
الفضاء والماء والهواء .. كما لوثوا عقولهم بالخمور والمخدرات ،
ولوثوا أرواحهم بالكفر والجحود .. وأن ماترينه براقاً حولك هو
الغرور ومتاع الغرور .. وخيال اللحظة .. ونشوة اللحظة
البارقة .. وقرنى التاريخ .. وانظري خلفك .. بل تحت
قدميك .. بل في التراب تحتك .. حيث اندثرت أمم
وأباطوريات .. وحيث انتهى عماليق طاولوا الشمس وخرقوا
السماء .

ولكنها لم تنظر إلى وراء ، ولم تلتفت إلى التراب تحت قدميها

وإنما ظلت ناظرة مبهورة دائما إلى غرب .. على حين ظل هو
شاخصا إلى الشرق - إلى مطلع الأنوار .. وقد أعطى كل منهم
ظهره للآخر .. وبينهما خيط رفيع .. رفيع .. هو عقد زواج ..
يوشك أن ينقطع .

نهر الكوثر

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾

هذا خطاب من الله لنبيه محمد ﷺ ، وهو أيضا خطاب من
خلاله لنا جميعا . والكوثر هي صيغة المبالغة التي هي فوق الكثير
والأكثر فهناك الكثير ثم الأكثر ثم الكوثر وهي الغاية من الكثرة
من العطايا والمنح والمواهب والنعم التي أفاضها الله على الإنسان
الكامل والتي هي في الوقت ذاته إمكانية باطنة في كل إنسان
يستحقها وراثته عن الكامل إذا سار على قدمه .
والآية لها معان متعددة بالنظر إلى الكمال الجسدى والكمال
النفسى والكمال الروحى الذى هو إمكانية متاحة لكل إنسان إذا
اجتهد فى نواله . وإذا نظرنا إلى الجسد وإلى البناء المادى
للإنسان ماذا نرى ؟ نرى خلقا قد أعطى الإنسان أكثر من
سبعة أضعاف احتياجاته فهو قد أعطاه ريتين مع أن بإمكانه أن

يعيش بربع رنة واحدة وأعطاه كليتين مع أنه بإمكانه أن يعيش بأقل من ثلث كلية واحدة ، وأعطاه كبداً ولو تليف سبعة أجزاء من ثمانية من هذا الكبد لاستطاع أن يعيش بالباقي .. أما الجلد فقد أودع الله فيه إمكانية التجدد إلى ما لا نهاية .. أما الدم فقد أودع فيه إمكانية التجدد بمعدل ستمين مليوناً من الخلايا في الساعة .

وقد جاءتنا الأنباء الطبية أخيراً بأن الإنسان يستطيع أن يعيش بخمسة في المائة من مادة مخه وهذا ما يحدث بالفعل في الحالات التي تعيش من مرضى التمدد المائي لغرف الدماغ ، وأحياناً يضغط هذا التمدد المائي على المخ فيتلف ٩٥٪ من مادته ولا يبقى للمريض إلا ٥٪ من مخه ، ومع ذلك يعيش المريض فوق في عمله ودراسته .. وتلك معجزة .

ويقول علماء النفس والأعصاب إننا نستخدم عشرة في المائة فقط من إمكانات جهازنا العصبي .

والكلام خطير والسؤال الذي يترتب عليه . ماذا يمكن أن يصبح الإنسان لو أنه استخدم طاقات جهازه العصبي كلها إنه سوف يصبح عملاقاً في مواهبه وقدراته الفكرية والعصية وهذا العمل هو ما نرى جانباً منه في بهلوان السيرك .. وما يستطیع أن يعمل بيديه ورجليه .. وأحياناً بأسنانه التي يحجر بها أتوبيساً وهي أمثلة على طاقات مادية كامنة أمكن تدريبها ، وفي عقولنا

طاقات أخرى كامنة أخطر بكثير من هذه الطاقات التي دريها بهلوان السيرك .

وما نقرؤه عن وسطاء يستطيعون تحريك عقارب الساعة دون لمسها أو ثني قضيب من الحديد بمجرد تركيز الإرادة عليه أو قراءة الخواطر على البعد وما تعلمه من غرائب التنويم المغنطيسي . وما بلغنا من كرمات أهل الشفافية والصلاح من الأولياء . كلها مجرد أمثلة أخرى لطاقات كامنة في عقولنا ونفوسنا ، فلا غرابة إذا قيل لنا إن محمداً ﷺ وهو الإنسان الكامل كانت لديه القدرة على الاتصال بالملك جبريل ، وأنه كان يتلقى عن ربه وحياً وأنه أسرى به جسداً وروحاً إلى بيت المقدس وعرج به إلى السموات العلى حتى بلغ سدة المنتهى وأشرف على قاب قوسين من لقاء ربه . فذلك أمر لا يستغرب على من بلغ الغاية من الكمالات الذاتية فكان الرجل الأمين والصديق الوفي والمقاتل الشجاع والقاضي العادل ، والمتكلم البليغ والزوج المحب والأب الحنون والإنسان القدوة والقائد الحكيم والنبي صاحب الدعوة - واثق عليه ربه قائلاً :

﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ .

فأي غرابة في أن يكون هو النموذج والمثال وصاحب الكوثر

بالفعل .

وبقدر نصيب المثال والنموذج وبقدر حظه يكون حظ كل منا

إذا اجتهد في تكميل ذاته .. وكل منا وارت بقدر اجتهاده ..
ألم يقل لنا العلم الثابت إن الواحد منا يعيش بعشرة في المائة
من مواهبه وملكاته وأن تسعين في المائة من هذه الملكات معطل
أو كامن أو غير مكتشف .

لقد نقل الذي عنده علم من الكتاب عرش بلقيس من اليمن
إلى فلسطين في طرفة عين .. واستطاع سليمان أن يكلم النمل
والطير وأن يستمع إلى تسبيح . الجبال ، وأوقى الطلسم الذي
يحكم به مملكة الجن ويسخر به مرده الشياطين ، كما أوقى ذو
القرنين الأسباب التي يفتح بها مشارق الأرض ومغاريها ، كما
أعطى عيسى القدرة على إحياء الموتى وعلى شفاء العمى والبكم
والصم .

وذلك بعض الكوثر وبعض الكامن من المواهب
والاستعدادات في الإنسان الكامل الذي خلقه الله في أحسن
تقويم ونفخ فيه من روحه فأصبح قابلاً لما لا نهاية من الفيوضات
الربانية ، وذلك كوثر الدنيا ، وهو غير كوثر الآخرة الذي قال
عنه النبي ﷺ إنه .. حوض من شرب منه لا يظلم بعد شربه
أبداً وهو حوض اختص به الله محمداً وأمه وهو من الأسرار
الغيبية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ..
فهنيئاً لمن ورد ذلك الحوض .. وهنيئاً للقلة المسلمة المؤمنة بما
وعدها الله ورسوله .

أما الكثرة الكثيرة التي قضت على نفسها بالحرمات بما أسدلت
على عيونها من حجب البعد والغفلة وظلام الخطايا والذنوب
وركام الكبرياء والشرك والكفر فإن الله لم يخلق أمامها باب
المغفرة ولم يسد باب الرحمة وإنما فتح لها نوافذ التوبة على
مصاريعها حتى غرغرة الموت .

ألا يحرك فينا هذا الكرم .. الحب الذي ليس كمثله حب
لنشر السواعد ونعمن ونجتهد ليكون لنا الحظ في ميراث
الكوثر .. بل البعض القليل من هذا الكوثر .. بل قطرة واحدة
من نهر الكوثر .
وإن نهر الكوثر ليجرى فينا .. أقرب إلينا من حبل الوريد .
وأنه ليس عنا بعيد .

الإسلام فتوة

هناك نوع من الناس لا نفع فيه ولا ضرر منه .. نوع يمشى إلى جوار الحائط ولا يشارك في شيء .. نوع متواكل سلبي لا منتمٍ لامبالٍ وقد تعارفنا على أن نطلق على هذا النوع اسم «الرجل الطيب» لأنه يعيش في حاله وقد كف عن الناس خيره وشره وطوى صدره على همومه وآثر ألا يزعج أحداً .. وتصور البعض خطأ أن هذا الرجل هو نموذج المسلم المتدين الصالح . وقد فهم هؤلاء الناس الإسلام فهماً خاطئاً .. فالإسلام ليس ضعفاً بل فتوة وإيجابية .. الإسلام ليس خنوعاً وخضوعاً وسلبية بل موقفاً ومبادرة .. وإبراهيم النبي عليه السلام حطم الأصنام وواجه بطش النمرود ، وداود عليه السلام حارب جالوت وانتصر عليه ، وموسى عليه السلام واجه جبروت الفرعون وحده ، وقاد اليهود في رحلة التيه في سيناء ، ونوح عليه السلام صنع السفينة

١٧٤

وظل يدعو أراذل الكفار قرابة الألف عام ، ثم استقل سفينته مع الصحبة القليلة المؤمنة وركب الطوفان ، ويوسف عليه السلام صارع الفتنة والغواية في قصر العزيز ، وصبر على السجن كما صبر من قبل على غدر الإخوة وعلى عذاب الحب ، حتى جاءه الحكم والملك ، وعيسى عليه السلام قال لاتباعه : « ما جئت لألقى سلاماً بل سيقاً ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ختم النبوة بسيرة حافلة بالكفاح والمعارك والغزوات ، وكان يعبر لهيب الصحراء في سبع ليالٍ من الزحف إلى تبوك وقد جاوز الستين من العمر .

الدين ليس فيه هذا النوع السلبي من الطيبة .. وليس فيه الاستسلام والخنوع والخضوع والاستكانة والذل .. والذين امتدحوا هذه الصفات وظنوها تصوفاً أخطئوا فهم التصوف أيضاً ، وانحرفوا به عن نقائه الإسلامي ، فالتصوف الذي لا ينهض لمقاومة الظلم ليس له من الإسلام نصيب .

وإذا كان الاستعمار قد شجع في الماضي بعض الطرق الصوفية التي تروج للسلبية والضعف والخضوع والاستكانة ، فإن الكثير من الصوفيين الأصلاء لم ينخدعوا ومن هؤلاء خرج جيش السنوسية يحارب الاستعمار الفرنسي في الشمال الأفريقي وقد حمل المصحف في يد والسيف في اليد الأخرى .

ولا أعرف ما هو النموذج القرآني لهذا النوع السلبي من

الطيبة .. لعله هاييل الذي رفض أن يدافع عن نفسه حينما بسط
أخوه قابيل يده ليقتله فقال الأخ الطيب :

﴿ لتن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك
لأقتلك ﴾ (٢٨ .. المائدة)

فأثر أن يموت مظلوما على أن يدفع عن نفسه الظلم ، وترك
النصاص لله .. وجعلها سنة للضعفاء من بعده .. ولكن هاييل لم
يرد يده عن ضعف ، بل عن قوة وكان بإمكانه أن يبطش
بأخيه ، وإنما اختار التنزيه في اللحظة الفاصلة فنزه يده أن تريق
دم أخيه وتلك ذروة في القوة .. فعل ذلك خوفا من الله وليس
خوفا من أخيه ، وهو نفس المعنى المراد من كلام عيسى عليه
السلام في الإنجيل .. من ضربك على خدك الأيمن فأدر له
الأيسر .. فما أراد المسيح بكلامه أن يصبر المظلوم عن ضعف ،
بل يصبر عن قوة ويعف عن قدرة .

وهو نفس مذهب غاندى « الهمسا » أى عدم رد الأذى
بمثله .

وقد انتصر غاندى على الإنجليز بهذا المذهب وأخرجهم من
الهند .. لأن مفهوم المذهب كان القوة والقدرة وليس الاستكانة
والذل .

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ هم الأقوياء
وليسوا الضعفاء والحديث يوضح هذا المعنى فيقول : « المؤمن

القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » فهو لم
يحرم الضعفاء نصيبهم من الخير ولكنه قال إن المؤمن القوى أحب
إلى الله .

والقوة مطلوبة ولاشك في هذا العصر المادى الذرى الذى
أوشك أن يتصارع فيه العماليق .. والضعف سوف يكون مهلكا
قاضيا على أصحابه .

وفى مواجهة الصلف الاسرائيلى ومظاهرات القوة التى
تباشرها إسرائيل فى البر والبحر والجو .. لا يصح للعرب أن
يقفوا هذا الموقف الضعيف المفكك المتهاك .. وإنما لابد من
وحدة وإعداد واستعداد ، وجمع للشمل وشحن للهمم وتشجير
للسواعد ورفع للقدرات العسكرية للذروة .

إن مفهوم « الرجل الطيب » بمعنى الرجل الذليل المستكين ،
يجب أن يشطب من القاموس العربى ، ومن القاموس الدينى
تماما ، فهو ليس مفهوما دينيا وليس مفهوما إسلاميا ، بل هو
مفهوم استعمارى غسلا به مخنا وروجوه بيننا خلال سنوات
الاستعباد والاحتلال .. وهو اختيار الكسالى والجبناء والضعفاء ..
وعلىنا أن نفيق على فجر جديد ومفهوم جديد يلائم العصر

الجديد والجاهلية الجديدة ذات المخالب والأنياب .

وفى عصر الذئاب لا يمكن أن نكون دجاجا وحملانا . والغد
الذى تسير إليه سوف يكون غدا مخيفا .. غدا لا إختيار فيه :

إما أن يكون الواحد منا آكلًا أو يكون مأكولًا . ولا طريق ثالث .

إنهم في إسرائيل يردون على اللطمة بقنبلة ناسفة ، وإذا أصاب رصاص القناصة فردًا واحدًا منهم قاموا بتمشيط الجبل كله ونسفوا المنازل وهدموا البيوت وسووها بالبولدوزرات . لم يعد قانونهم السن بالسن والعين بالعين كما تقول التوراة .. ولكن السن يطقم الأسنان كله . والعين بألف عين .. والرأس بأمة ، ويسمون ذلك استراتيجية الردع . وهم ولا شك تعلموها من النازية . وفي مواجهة هذه الاستراتيجية لاتصلح فلسفة « الرجل الطيب » ولا إدارة الحد الأيسر بعد الأيمن .

ولم يردع بغى النازية إلا بغى أشد منه ، ولن يصلح للباس الشديد إلا بأس أشد منه ، ولست أدق طبول الحرب ولا استنفر لقتال .. فالوقت غير مناسب والرياح السياسية غير مواتية ، والعرب اثباتًا لانفير لهم ولا عزم ولا كلمة . وإنا أقول .. اجتمعوا وتشاوروا واستعدوا واحتشدوا ، اخلعوا عباءة الرجل الطيب ، انفضوا عنكم المسكنة .

ولأن يأتيكم الموت في كرامة أفضل من أن نكرهوا عليه في مذلة ، وأن الموت لآت ياسادة شتمتم أم أبيتم . واذكروا لى اسم رجل واحد هرب من الموت منذ آدم .

فهرس

| صفحة | |
|------|---------------------------------|
| ٣ | الدين .. ماهو ؟؟ |
| ١٠ | الصلاة |
| ١٦ | الصيام |
| ٢٠ | الزكاة |
| ٢٧ | الحج |
| ٥٥ | كلمة التوحيد .. ماذا تعنى |
| ٦٦ | الحب |
| ٧٢ | المرأة |
| ٧٧ | احترام الجسد |
| ٨٢ | الشريعة متى .. وكيف ؟ |
| ٨٩ | عن التصوف |
| ١٠٧ | الفردية والتفرد |
| ١١٤ | الدين والعلم |
| ١٢١ | الملك والملكوت .. وأنا |

صفحة

| | |
|-----|----------------------------------|
| ١٣٠ | عن التطور |
| ١٤٠ | بحث في ألفاظ القرآن الكريم |
| ١٤٦ | الصانع العظيم |
| ١٥١ | عالم الوحشة « والغربة » |
| ١٥٧ | الفجوة بيننا وبينهم |
| ١٦٩ | نهر الكوثر |
| ١٧٤ | الإسلام فتوة |